رواية | الثاني جائزة الشارقة للإبداع العربي | الإصدار الأول | الدورة 22 | 2018

مثل تغريدة منكسرة

محمد مختاري

دائرة الثقافة الشارقة

مثل تغريدةٍ منكسِرةٍ...

محمد مختاري

مثل تفريدةٍ منكسِرةٍ...

رواية

إصدارات دائرة الثقافة، حكومة الشارقة 2019 م

الناشر: دائرة الثقافة ـ حكومة الشارقة ـ دولة الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 5123333 9716+
برّاق: 5123303 9716+
بريد إلكتروني: sdc@sdc.gov.ae

© حقوق النشر والطبع محفوظة
الطبعة الأولى 2019

صورة وتصميم الغلاف: ضياء الدين الدوش

◆◆◆

813.03

م م. م

مختاري، محمد

مثل تغريدة منكسرة / محمد مختاري.- الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: دائرة الثقافة، 2019.

156 ص؛ 21X14 سم.

الفائز بالمركز الثاني في مجال الرواية بجائزة الشارقة للإبداع العربي، الإصدار الأول، الدورة 22، 2019/2018.

1 – القصص العربية – المغرب

أ – العنوان

ب – جائزة الشارقة للإبداع العربي، الإصدار الأول (الثاني والعشرون: 2019)

ISBN: 9789948387206

«مســخرة. أن تكتب موضوعاً عن الغزال المشوي، بينما لا تحتوي حقيبتك المدرســية إلا على قطعة خبز حاف طعاماً للفرصة».

رفيق شامي، يدُ ملأى بالنجوم

الإهداء

إلى الشحرور الأبيض: الطّائر الخرافي...

إلى أمبرتو إيكو... الذي رحلَ، وحلمُ لقائهِ لم يرحل...

إلى الكاتب المغربي: ميمون حرش...

إلى كلّ مجانين الحكي...

إلـيكَ أيها القارئ، فينيقُنا دائماً...

إشارةٌ لا بدّ منها

عندما كان أمبرتو إيكو حياً، كان يوصي بالقارئ خيراً؛ لذلك صارَ لزاماً عليّ، باعتباري أحد المعنيين بالوصية، أن أعتنيَ بالقارئ. غيرَ أن نصّاً كهذا، لا يسمحُ لنفسه باحترام تعاقدات كثيرة مع قارئ الروايات الكلاسيكية، يفترضُ لنفسه قارئاً خاصّاً. أتمنى أن تكونَهُ، أنتَ، قارئ هذه الرواية.

قبل السرد

«تحكـــي هذه الرّواية قصّة...»، إن تجرأتُ، وأتممتُ هذه العبارة، فلا تقرؤوا هذه الروايةَ أبداً!

هـذه العبارة القاتلة، التي تعصف بكلّ اللذّات، لا زالت تفعلُ فعلها في رواياتنا التي نكتُبها من أجل اللّذة!!

لكن ليس هدفي، كما ترون، هُنا، أن أقول هذا؛ بل إن هدفي الأوحد ليسَ سوى طلب بسيط للقارئ، هو:

«اقرأ بحُبّ»

أما كيف يمكنك أن تُحبّ، فإني أثق فيك حدّ العمى...

اختر النكهة التي تودّ بها تذوق الرواية، وابدأ رحلة البحث عن...

اطلبوا الحكي ولو في الصين!

(1)

وأنــا أمام آلة الكتابة خاصّتي (أيجعلني ذلك أبدو كلاســيكياً؟)، أو بالأحــرى، أمام لوحة المفاتيح (clavier)، أرمقُها بعينيّ الناعســتين، أحــاول أن أفكر فــي قصة ما، أرويهــا لكم. كان يكفــي ذلك أن أبقى شــهوراً وأعواماً أمام هذه الحروف العربيــة، التي لا تريد أن تجتمع لي. لا تريد ذلك، في الغالب، لأنها عربية!

وقد قيل: إن لم تستطع شيئاً، فدعهُ وجاوزهُ إلى ما تستطيع. لكني، والحق يقال، أحبّ ما لا أستطيع. الحب أقوى.

دعونا من ذلك...

أتعرفــون؟ حينما كنــت أفكر في قصة ما، جديــرة بأن تحمل هذا الاســم، اتصلت بالسارد أولاً، لأجل التفاوض حول الأجر الذي يكفيه ليسـدّ لي هذه الخدمة. كانت الساعة تشــير إلى السادسة مساءً، حينما قال لي إننا سنلتقي، بعد نصف ساعة، في مقهى السّرد (المقهى الذي ســيصير ضاجّــاً بالمتملّقين فيما بعد، ولا آملُ، حقّــاً، أن أكونَ منهم، طبعاً!).

ولكـي أمثل دور الشـخصية المهمة والأثيرة، حاولـت أن أتأخر خمـس دقائق عـن الموعد المحدد، وأترك صديقي السـارد ينتظرني قليلاً، كي يحسّ (بشكل مؤقت على الأقلّ) بأهمية القادم إليه!

– أتعرف كم السـاعة الآن؟ قال السـارد فورَ رؤيتِهِ لي، ممتعضاً من تأخري.

– أعتـذر، قلـت مدّعياً عـذراً يزيد من فخامة شـخصيتي أمامه: أشغال مهمة حالت دون حضوري الفوري، أجدّد الاعتذار.

– ما علينا، لندخل مباشرة في صلب الموضوع.

– آه. نعم. لقد طلبتك لأجل مساعدتي في مهمة أعياني التفكيرُ فيها زمناً طويلاً، فهل لك أن تمد لي يد العون؟

– يبدو أنك لم تفهم ما قصدته بـ«صلب الموضوع»؟

– حسـناً حسناً. أعتذر، لقد اتصلت بك كي تساعدني في بناء عالم يليق بروايتي.

– هممـم، عالـم؟! أظن أن «عالمـك» هذا لا يكفـي للحديث عن رواية!

– لا تسألني عن ذلك، أرجوك. لأني ما زلت مبتدئاً، ولو كنتُ أتقن الحكي وفنونه، لما اتّصلت بك أصلاً.

لقـد قيل لي إنه يكفي، لكتابةِ روايةٍ مّـا، أنْ نُفكّر في عالم متكامل

الصّـوى والمعالم، ثم نبنيه بنظرتنـا الخاصة. لكن الحق أقوله لك، لم أفهم ما كان يقصده أمبرتو إيكو بهذا العالم؟!

بعدما بحت له بالأمر، أدار وجهه ناحية النافذة، كي لا أرى عينيه اللتين كانتا تدمعان من شـدة الضحك؛ ذلك مـا كنتُ أراهُ في انعكاس قهقهاته، المتخفيةِ، على زجاج النافذة.

– حسـناً، سأحاولُ إلا أخيّب أملك، فما دمت ترجو كتابة الرواية، سوف أساعدك على ذلك. لكن، شريطة أن تلتزم بتعلّم بعض الدروس.

– أكيـد، سـألتزم بتعلّمها، قلتُ بحزم وحماس شـديدين، اللذيْن لا أرجو أن ينطفئا بسرعة.

– لكن ليس هنا. هنا سـيفضحنا القارئ، عندئذ لن يرغب حتى في قلـب صفحة واحدة من صفحات روايتـك، أتعلم لماذا؟ لم يكن ينتظر جوابي. أجاب بنفسه متهكماً: لأنه سيندم على اقتنائها أصلاً.

– حسناً، كما تشاء. قُلتُها مُبدياً ترحيبي بسخريته.

– لنذهب، قال.

بعدمـا ناديتُ على النادلِ، الذي دفعتُ لهُ أجر القهوة التي شـربها السارِدُ، سرتُ إلى جانبِ آمري. حينها، لم أشعر بنفسي حتى دلف بي إلـى دربٍ مظلـمٍ، لم أدرك أوّله من آخـره، كيف أمكنَ لي أن أصفه؟ كان ظلاماً، وكفى!

* * *

تصوروا معي، (إذ لا بد من التصور منذ أن قرأتم أوّل حرف من هذا المكتوب)، بماذا ستشعرون إذا اقتادكم أحد إلى مكان لا تعرفونه؟ ألن تتشـوقوا إلى معرفة المكان؟ مثلي على الأقل؟ لا أظن ذلك، ليس لأنني أفضل منكم، لا... بل لأنكم أفضل مني بكثير. فمَن هذا السـاذج الذي ينقاد لشـخص غامض، ويشـك الجميع في صحة ما يسرده من روايـات؟ أيكون ذلك غباء مني؟ أم لأننـي أحب المغامرات؟ لا يهم. أنـا مقتنع بما يحصل معي الآن، وما سـيحصل معي بعدُ؛ لأن هدفي الوحيد، في هذه اللحظات، هو القدرة على كتابة الرواية، هذا فقط.

– أقُلتَ شيئاً؟ خاطبني السارد في الظلام الدامس.

– لا لا، أبداً، لم أقل شـيئاً. قلتُ متلعثماً، مخافة أن يكشـف السارد حديثي إليكم.

– لم يبق أمامنا سوى أمتار قليلة لنصل إلى الغرفة.

«أيّ غُرفة!» تساءلتُ، عن دهشةٍ، في نفسي. كان قلبي، من شدة النبض، على وشـك الخـروج من مكانه. ولكـي أداري ذُعري، قلتُ مدّعياً الارتياح:

– حسناً صديقي.

في الطريق إلى «الغرفة»، لم أكن أرى شـيئاً، كنتُ أتّبع خطوات السـارد فقـط. ومن حين لآخـر، أصطدم بحجرة، أو قطـة، أو جرو صغير... لم أعد أتذكر. لأنه لا شـيء كان يُحدثُ صوتاً سـوى رجلي

السارد اللتين كانتا توجهانني بخطوهما المضبوط؛ إذ إنني لم أكن أميّز، حينذاك، بين صوت خطواته، وتكتكات ساعة غرفتي التي أُحسُّني مشتاقاً إليها الآن...

– ها قد وصلنا. قالها مُتنهّداً. بينما أنا كنتُ أخفي تنهُّداتي اللانهائية أمامه، كي لا يشكّ في أمري طبعاً. ثم أضاف، مُحدثاً صوتاً غريباً، كما لو أنّهُ يشقى في حمل أطنان من الحجر على ظهره: ساعدني قليلاً لنزيح هذه الصخرة عن الممر.

– ماذا، آه، نعم، أين هي؟ كيف؟ لا أرى شيئاً!! قلت بصوت متلعثمٍ، مشدوهاً من ذكرهِ لكلمات مثل نُزيح، صخرة، ممر...!

كنت أظن أننا سنذهب إلى غرفة فاخرة، تليق بالشخصية التي كنتُ أحاول رسمها في ذهن السارد عند أول لقاء! بينما أجد نفسي منساقاً إلى نفق، وحدهُ الظلامُ يعرف شكلَهُ! حينها لم أجد ما أفعله غير مساعدته في إزاحة الصخرة الثقيلة جداً عن الممر. كان الممر أشبهَ بـ... كان أشبهَ بالظلام. كيف أصفه وأنا أتحرّك في العتمة؟ ولا شيء غير العتمة!

(أين أنتَ يا بورخيسُ كي تمدحَ هذه العتمة؟).

بعدما أزحنا الصخرة عن المنفذ، أمرني السارد بأخذ الانتباه في أثناء النزول عبر السلم إلى الأسفل؛ لأن السلم كان مهشماً جداً. استجبت لتحذيره، وحاولت أن أنزل بهدوء كبير. فجأة، وثب إلى صدري شيء ذو فرو ناعم، أمسكت به متحسّساً شكله، فلما تأكدت

مـن كونه جرذاً صغيراً، رميته بعيداً عني متقززاً من صوته البشـع. تابعـت النزول إلى الأسـفل، حتى وصلتُ إلى أرضيـةٍ تملؤها المياهُ الآسـنة مـن كل جهـة. كان ذلك كافيـاً لأخلع حذائي وأضع سـبابتي وإبهامـي على أنفي الذي يبدو أنه بدأ يزكم. كان يزكم بالفعل، لكن لا تظنـوا أن الرائحة كانت منبعثة مـن حذائي، بل المياهُ هيَ التي كانتْ مزعجةً جدّاً!

تابعـتُ اقتفاء صوت خطو السـارد، كنت أكثـر اهتداءً في النفق؛ لأن صوت المشـي فوق المياه كان موجّهاً أفضـل. وأخيراً، (ومؤكّدٌ أنه ليس إلا آخراً)، سـمعتُ السارد يفتح جيبه مُخرجاً شيئاً منه. وبعد هنيهـة، تأكدت من أنه كان يُخرج مفتاحاً كـي يحاول فتحَ بابٍ مغلقٍ بِقُفلٍ صدئٍ.

– أووه، مشكلة أخرى! قال السارد محتقناً.

– ما بك؟ ماذا حدث؟! قلتُ مندهشاً.

– يجب أن نكسر الباب، فالقفل صدئ، ولا يريدُ أن ينفتح.

– حسـناً. قلت بحماس مصطَنَعٍ، وأضفتُ: هيا لنكسـره!. وعدَدنا حتى الثلاثة كي ندفع الباب بقوة دفعة واحدة.

– واحد، اثنان، ثلاثة. قلنا في صوت واحد.

انكسـر البابُ ووقعنا على جانبينا؛ إذ إن الباب لم يكن يحتاج إلى كل تلك الاسـتعدادات، فلو قام واحد منّا بركلهِ ركلةً صبيّ، في ربيعه

الســابع، لَانْكسر من دون أدنى شــك. وقف الساردُ ثم اتجه نحو مكان قريب مني؛ ذلك بأني لم أشــعر بخطواته تبتعدُ عني كثيراً. وشعرتُ، لوهلةٍ، في ركنٍ بالغرفة التي نحن فيها، أنه كان يبحثُ عن شيء مّا.

– ااه، وجدتُه!! قالها كمن وجد كنزاً ثميناً.

– ماذا وجدتَ؟

– الشـمعدان. أجــاب وهو منهمك في تحريـك عجلة القداحة التي عانى الأمرين قبل أن يتمكن، بواسطتها، من إيقاد الشمعدان.

بعدمــا أضاء الشــمعدانُ الغرفــةَ، كانت عينــاي مضببتّين قبل أن تســترِدّا نورهما. شــيئاً فشــيئاً، بدأت أســترجع كامل بصري. فبقيت فاغراً فمي وقتاً، لم أشعر بِطولِهِ، لِمَا رأيتُ داخلَ الغُرفَة!

(2)

ماذا تظنون، مثـلاً، أني رأيتُ بالغرفة!؟ يا لكم من فضوليين! إذا كانتْ مدهشةً بالنسبة إليّ، فذلك لا يعني، بالضرورة، أنكم ستندهشون أيضاً!

هـذه هـي الحيل، فيما أحسـب، التي يقـوم بها هـؤلاء الذين أنتم مولعون بقراءة أعمالهم. هم لا يحسـنون سـوى بث التشويق الزائف في النفوس.

ولكن، ولرغبة ملحّة في الدهشة، سأصفُ ما قد يدهشكم قليلاً، أو كثيراً، فالمهم من كل ذلك هي الدهشة، نعم: الدهشة!

حسناً...

لقـد كانت الغرفة ضيقةً نوعـاً ما، ربما لأنها كانـت مطلية بلون أزرق داكـن. كنـتُ أحسّ داخلهـا بقليل من الاختناق، لكن انشـغالي بالأشياء التي كانت داخلها، كان يلهيني عن متابعة أنفاسي المتثاقلة.

مكتب السارد، لا علاقة له بالمكتب الذي نعرفهُ جميعاً، فهو عبارةٌ

عن كرسـيّين: أحدهما لأجل الجلوس، والثاني للكتابة. إلا أنّ أحدهما كان مرتفعـاً عن الآخر، ولا شـكّ أنه من الذكاء، غيـر المحتاج إلى شرحٍ، عملُ هذا!

فـي الخلف، توجد خزانة صغيرة تملؤهـا كُتبٌ ذات أغلفة قديمة، وأخرى جديدة، مرتّبة بعناية فائقة؛ إذ إن المكتوبة بالحروف اللاتينية موجـودة أعلـى الخزانـة، أما المكتوبـة بالحروف العربيّـة فهي في الأسفل. فكرت: إما أن السارد يسفّل من قيمة الكتب العربية، وإما أنه يحب أن يتركها قريبة منه، وفي متناول يده.

في الناحية المواجهة للمكتب، يوجد بابان، لم يكونا يبدوان لي في الوهلة الأولى. لكن، سـمحَ لي فضولـي بفتحهما، فتبدّى لي أن الباب اليميني يفضي إلى المطبخ، أما اليساري فهو، بدهياً، باب المرحاض. لكنّ مـا أثار انتباهي لحظتئذ، على الأقل، هو غياب مكان للنوم! لأن المعادلة الثلاثية (الأكل والشـرب – قضاء الحاجة – النوم) لم تكتمل بعد. ولمَّا دقّقتُ النظر، وجدتُ، بالقرب من المكتب، حصيراً مفروشاً علـى أرضية الغرفة، عليه وسـادةٌ بيضاء مرقّشـة بوُرَيداتٍ سـودٍ، وبجانب الوسادة لحافٌ بالٍ.

هذه التي أسـماها السـاردُ غرفةً، سرعان ما فرضت عليّ طابعها المنزلـي، وَلَـوْ أنّكم كنتم تسـتطيعون، عبر سـبع خطـوات فقط، أن تذرعوا المكان جيئة وذهاباً!

ولكن على الرغم من بسـاطة الأشـياء داخل المـكان، إلا أن مثلاً

إيطالياً يقول: «البسيط هو الأجمل»، قد يكفي لمواساة مشاعر السّارد!

كنتُ، منذ إشعال السارد للشمعدان، أراقِبُ هذه الأشياء التي تظنون أنها وحدَها التي أدهشتني، وهذا ما جعلني لا أنبس ببنت شفة أمام السارد الذي كان مُديراً لي ظهرَهُ (المستقيم كاللوحة التي يقطّعُ عليها الجزّارُ اللحمَ)؛ لأنه كان غارقاً في قراءة كتاب من كتب خزانته. كان واضعاً نظارته الكبيرة التي تخلّت عن عملها التام، بعد أن فقدت زجاجها اليساري.

في اللحظة التي وددتُ فيها أن أتحدّث معه بخصوص ما وعدني به، لفتتْ انتباهي، فوق «المكتب»، أوراقٌ مبعثرةٌ تتوسّطُها صورة مكشوفة النّصف بسبب ورقَة فوقها. أزحت الورقة، وأخذت الصورة، التي بدتْ لي مألوفَةً. أمعنت النظر محاولاً تذكّر الشخص الموجود فيها. لكني فشلتُ في ذلك، لم أعرف حينها ما مسّ ذاكرتي!

أخذتُ الصورة بِيَدِي، وطلبتُ من السارد، (وكانت فرصةً لمُفاصَحَتِهِ)، أن يكشِفَ لي عن هوية من بالصّورة. أدار وجهه ناحيتي مبتسماً، وقال في هدوء:

– جميل، هي فُرصَةٌ لبدءِ عملنا.

لم أفهم ما قصده السارِدُ بهذه العبارة الغامضة، لكنه سرعان ما أضاف:

– الذي في الصورة: مجنونٌ مولعٌ بزهور الرواية. قد استطاعت شهرته أن تقتحم كل أصقاع العالم، إذ تُرجمتْ معظم أعماله إلى

عشـرات اللغات. كان بـدوره مثلكَ، حينما اتصلَ بسـاردٍ يرجوه أن يساعدَهُ على كتابة الرواية.

سمعتُ ذلك باندهاش شديد، فأن تحسّ بأنك لستَ الوحيد الذي كنت تعاني من أجل شـيء تحبّه، لَأمرٌ يُشْعِرُ بالدّفء الشديد، لكن، أين أنا من الدفء؟

بعد أن رآني السـارد في تلـك الهيئة، أخبرني بأنه سـيذهب ليعِدّ القهـوة، كي نجلـسَ ونتحدّثَ (نجلـس؟! أين نجلس؟ لـن يرتاح هذا السـؤال إلا عندما يأتي السـاردُ ويدعوني للجلوس على كُرسـيّه، في الوقت الذي يجلس هو على الحصير!).

عاد سـريعاً، وبين يديه فنجانا قهوة (ستسـألون: كيف أعدّ القهوة، والمـكان لم يُزَرْ منذُ أمد بعيد؟ سـأجيبكم، بـدوري، إني لا أعرف!). أمدني بأحدهما، تاركاً الآخرَ لهُ. جلسـنا كما أخبرتكم قبل قليل، وقال لي بنبرة تنهّدٍ وتودّد:

– من أين نبدأ؟.

– أنتَ مُعلّمي وسيّد المقام، ابدأ من حيثُ تشاء. أجبتُه بأدب بالغ.

حدجني بنظرة لم أعرف، إلى الآن، ماذا تعني (لكن قد أتعرّفها في مستوى آخر). وضع نظارته جانباً، واستلم زمام الحكي.

فهو، اللحظة، السّاردُ، وسارِدُ السّاردين!

(3)

– كانت الزوجة، التي تعلو سحنتها كلّ ألوان البؤس، سعيدة، سنة 1935؛ لأنّها ستنجب أنثى. أنثى ستسميها «سعيدة». كان ذلك يدلّ، دون أدنى شك، على أنها تنتظر من هذه المولودة المستقبلية أن تُدخل السعادة عليها وعلى أسرتها، هي التي اشتاقت، بسبب الأب الصارم والعدواني الشّرسِ، إلى القليل من الابتهاج. القليل فقط.

في يوم من أيام السنة نفسها، ولا بدّ أنّه كان اليوم الرابع عشر من يوليو. وفي ليلة من ليالي هذا الشهر شديدة الحرارة، كانت الأم تراقب، من على منزلها (الذي لا أعلم إن كان يمكن تسميته هذه الأيام منزلاً!)، سرعةَ مرور القمر خلف السحاب. هكذا كانت ترى، المسكينةُ، العالمَ معكوساً.

معكوساً بسبب تعاستها.

وبين نظرة وأخرى إلى ضوء القمر و«سرعته»، كانت الأم ترمق الرائحين والغادين في الزقاق المجاور. كانت بني شيكر(*) تزهو، كل

* منطقة موجودة بشمال المغرب.

يـوم، بهـذه الحركة، (قبل أن تعكّـر المجاعة صفوَ الحيـاة بالقرية)، الأطفـال الذين يلعبون الكرة عند أبواب منازلهـم، الباعة المتجولون الذيـن لا ينتهون من عملهـم حتّى ينتصِفَ الليـلُ، صوت المحادثات «البيـن نوافذية» التي كانت تجريها النسـاء في انتظار أزواجهنّ. أما في بيتها، فلا يني زوجها عن الصراخ. كانت تحبّه رغماً عنها، تحبّه، فقـطْ، لأنه سـيكون أبَا المولـود الجديد. هذا على الرّغـم من أنه كان يُبرحها ضرباً، كلما تجرّأت على مجادلته. لكنه، وهذا طبيعي، ما إن يدخُل إلى السرير حتى تُبرمِجَهُ غريزتُه على الهدوء المؤقّت...

فـي الأوان ذاتـه، كانت تسـمعه يزبد ويرغي، ويصـرخُ بكل ما تسـتطيعهُ حبالُـه الصوتية. كان يبحث عنهـا، يناديها بصوته الأجشّ الصّاخـب. لكنهـا لا تردّ عليه. كانت تشـعر بوجع فـي بطنها. كانت تحسّ بأن طفلتها «سـعيدة» على وشك الخروج. وبخاصةٍ، أن الشهر التّاسع قد طرق أبوابَ حملها منذ أيّام. هي لا تريد أن تردّ عليه مخافة أن يضربها، وتفقدَ ابنتها التي علّقتْ عليها كلّ أمَلٍ.

لمـا أعياهُ البحث، خرج يسـأل الجيـران عنها، وفـورَ خروجه، انتهزت الزوجـةُ الفرصـةَ وخرجت هي الأخرى مـن الباب الخلفي، كانـت تركضُ في الشـارع المؤدي إلى مشـفى قريـب. صابرة على الطّلق الذي يشـعرها كل حين أنها على وشـك الولادة. ولما وصلت إلـى المكان، وجدتهُ مُغلِقاً أبوابَهُ لأنّ الحظّ التعسَ هو الصديقُ الوحيد الذي تجده وقت الضيق. ركعت عند قدمي الحارس الإسبانيّ، ترجوه أن يقوم بشيء ما لأجل الطفلة التي تركل جوف بطنها، وتعلن اقتراب

اندفاعها. لكن الحارس لم يأبه لنُواحِها وعويلها، فردّ بلهجته الإسبانية القاسية «el hospital hora esta cerrado!!»[*]. راحت الدّموع تمتزجُ والوجع الذي يمزق أحشاءها، لم ترجُه ثانية، لأنها كانت تعرفُ جيداً ما يمكنه أن يفعلَ إسبانيّ محتقِنٌ غضباً بها.

لكن الزوجة لم تستسلم للحظّ التعس، بل ذهبت إلى صديقة لها قريبة من المشفى. وصلت إلى منزل الصديقة وشكت لها ما ألمّ بها. أدخلتها إلى غرفة متواضعة ضيقة، تملك نافذة صغيرة، وتحوي سريراً خفيضاً بالياً، ومائدة دائرية تتحلّق حولها كراسٍ بلاستيكية صغيرة (سيقال عنكَ، آنذاك، إنّك أغنى من قارون إذا كنتَ تملك بيتاً كهذا!). أعلمتها الصديقة أنها ذاهبة إلى صديقة لها تدعى «رْقابْرا نْ دْشارْ»[**]، وأنها سترجِعُ حالاً. مرّت الدقائق، التي غابتْ فيها الصّديقةُ، على الزوجة، كأنها أعوام لا تنتهي بسبب تزايد الآلام. لكن، سرعان ما عادت الصديقة وبصحبتها المرأة التي ستولّدها. فرحت الزوجة لرؤية «رقابرا ن دشار» (فرح وألم دفعة واحدة: شعور لن تفهمه سوى الأمّهات)، وأخبرتها بمكان الألم بالتّحديد. تفحصتْها المُولّدة. وقالت بأنها لن تلدَ إلا بعدَ بضع ساعات، مما زاد من خوف الزوجة.

كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف بعد منتصف الليل، الصديقتان كانتا تنتظران بدورهما ماذا سيحدث. خفّ الألمُ ساعتين

---

* المشفى مُغلَق الآن، باللغة الإسبانية.

** داية أو مُولّدةُ المَدشر، باللغة الأمازيغية.

تقريباً، أما بعد الساعتين، فكانت الزوجة ترى الموتَ بين عينيها. صرخت بكل ما فيها من قوة. هرعت المولّدة إلى إنجادها. قالت: «الآنَ الآن!!» أخبرتِ المولّدة الصديقةَ بأن تحملَ إليها قِدرَ ماء صغيرة. استجابت للأمر. بعد برهة صرخَ المولود. تنهّدت الزوجة، (التي أصبحت أُمّاً الآن)، تنهيدةَ من فرغ للتوّ من حرب شعواء. أخذت، بيدين مرتجفتين، المولودَ من بين يدي المُوَلّدة، بعدَ أن قالت لها:

– مبارك عليك المولود الذّكر.

في اللحظة التي سمعت فيها الأمّ عبارة المولّدة التي تعبّر، بكل وضوح، عن حظها الذي لطالما عاندها. فكرّت في الأشهر التسعة التي قضتها تحلم بطفلة. وفكرت أيضاً بالاسم «سعيدة»، فكرت في زوجها الذي يبحثُ عنها الآن، أو ربما يكون قد نام بعد عودته ثملاً من عند المقامرين أصحابه. فكرت أخيراً: كل شيء من عند الله. غفت غفوة قصيرة، وترجّت بعدها صديقتها أن تمكث عندها حتّى الصباح. رحّبتْ بها وأخبرتها، بلباقة، بأن الدّارَ دارها.

وهكذا يكون الطفل قد وُلد، بحكم الحظّ، في الخامس عشر من يوليو من العام 1935. أسماهُ الأبُ، الذي لم يأبه للمولود ولا لزوجته التي غابت الليلة الفارطة، مُحمّداً. لم يُسمه بهذا الاسم بسبب نظرة دينيّة؛ بل فقط لأنه لم يجد اسماً، لحظتذاك، يسميه به.

وهكذا، كُبُرَ محمّد وارثاً، عن أمه، جينات الحظّ الأسود التّعس.

لكني إذا جزمتُ بهذا الأمر، فسأكون كاذباً. سأكون كاذباً إلى درجة أن وَسْمَ السّارد لن يليق بي.

(4)

حكى السّــارِدُ ما قرأتموه قبل قليل، وأخذ بين يديه الصورة، التي طلبتــه أن يمدّنــي بمعلومات عنهــا، ورمقها بنظــرة متعبة. وضعها جانبــاً، وعبّرَ لي عن رغبته في النوم قليلاً، واعداً إيّاي بأنه سـيكمل السّرد يومَ غدٍ، معتذراً عن أنه لم يحكِ سوى القليل. أخبرني بأنه يوجد على يســار المطبخ فراش آخر إذا كُنتُ أودّ أن أنام. شكرتُه على ذلك وتمنيتُ له نوماً هنيئاً. اضطجع السارد على حصيره مديراً لي ظهره مرة ثانية...

أمّا أنا، فلم أكن أســتطيع النّوم بســبب القهوة التــي قدّمها إليّ. بدأ الجــوع يبعــث إلى بطني رُسُــلَهُ، لم آكل منذ الثانية زوالاً، والســاعة التــي كانت معلقة أعلى الخزانة كانت تشــير، قبل وقت ليس بالقليل، إلى الثامنة والنصف، والآن لا زالت تشــير إلى نفس الرقمين: كانت معطّلة.

غالبنــي الجوع، فذهبت مشــياً علــى أصابع رجليّ إلــى المطبخ. فتّشــت، تحت الضوء الخافت، عن شــيء آكله. وجدتُ بضع تمرات، أخذت سبعاً منها. أكلتها بنهم، فخفّت زقزقة العصافير.

مررتُ بالفراش الذي أخبرني به قبل قليل، وضعته بجانب مكتب السّارد، وحاولت الاضطجاعَ، لكن، لا جفن يغمضُ لي. عنّت لي فكرة أن آخذ كتاباً من الخزانة وأقرأه ريثما يهزمني سلطان النّوم. بخفّة، انقضضت على كتاب، من أعلى الخزانة، بطريقة عشوائية. كان معنوناً بـ«onze minutes»، أعجبني العنوان. بدأت أقرأ الكتابَ بنهم شديد. وطيلة أربع ساعات ونصف الساعة، كنتُ أتصفّح هذه الرواية التي كتبها باولو كويلو، كان كتاباً صريحاً جدّاً، يحكي قصة أنثى برازيلية تدعى «ماريا»، اضطرتها الظروف التي لا ترحم إلى العملِ مومساً فيما بعد. كان ذلك مدهشاً حقّاً، ليس بسبب هذا الموضوع الذي يبدو مبتذلاً، وغير لائقٍ؛ بل بسبب الطريقة التي عبّر بها الكاتب عن مأساة الأنثى، مازجاً بين مذكراتها وإبداعه السّردي، مقترباً من أماكن حساسة جدّاً.

وبعد أن قرأتُ توضيحاً منه، في عقب الرواية، بأن القصة واقعية، وأنه فقط حاول تقديمها بطريقة إبداعية، زاد من إعجابي بها.

حقّاً إنكم إذا تحدّثتم عن مواضيع، مبتذلة كانت، أو حسّاسة، أو محرّمة...، فإنكم، بأسلوبكم وبرؤيتكم الخلابة، قد تستطيعون أَسْرَ القارئ.

فكّرتُ في كل ذلك، بعدما انتهيتُ من قراءة الكتاب المشوّق. أحسستُ بعينيّ تحاولان الاستسلام للنّوم. أعدتُ الكتاب إلى مكانه، وأطفأتُ الشمعدانَ، ونمتُ.

* * *

لـم أدرِ كـم مـن الوقت مـرّ حينمـا رمقتُ السـاردَ، بعينيّ شـبه المغمضتين، يجهد في إشـعال الشمعدان مرّة أخرى. كان يظنّ أني لا زلـت غارقاً في نومي، (أو كنتُ أظنّ أنهُ يظنّ أني نائمٌ). كُنتُ أرقُب حركاتـه داخـل المكان. دخل إلى المطبخ. خرج يرتشـف قهوته التي أكّدت لي أن الصباحَ قد حانَ. جلس إلى مكتبه يراجع أوراقاً لم أتجرأ على الاقتراب منها. بعد هنيهة، وبشكل غير متوقّع، قال لي:

– صبـاح الخير، كيـف كان نومك؟.. قال هذا وكأنه كان يعلم أني كنتُ أراقبه.

– صبـاح الخير، نمتُ جيّداً، وبخاصة، بعـد قراءتي لأحد الكتب الموجودة بالخزانة. وبالمناسبة، أعتذر عن عدم الاستئذان؛ لأنك كنتَ نائماً، ولم أشأ إزعاجك.

– لا عليك أبداً، اعتبر من اليوم، بل من البارحة، الخزانةَ خزانتكَ.

– شكراً جزيلاً صديقي، هذا لطف منك.

– أعددتُ القهوة قبل قليل، بإمكانك صبّ فنجان لك.

شـكرته على طيبته وكرمه. غسـلتُ وجهي، نظرت إلى تقاسيمه بدقّة في مرآة منكسـرة، تعددت وجوهي، تنصّلتُ منها عن مشقّة، ثمّ خرجت. توجهت إلى القهوة، صببتها في فنجان. بدأت أرتشـفها بلذة. فكرتُ: كيف يحضّر القهوة بهذا الإتقان؟ بعد الرشـفة الثانية، توجّهتُ إلى المكتب. جلسـت، كأمس، على الكرسـي. كانـت تخامرني أفكار

كثيرة: أن أسـأله، مثلاً، عن سـرّ هذه الغرفة التي أتى بي إليها، وعن علاقـةِ ما حـكاهُ ليلةَ البارحة، (إن كانت حقّاً ليلـة)، برغبتي في تعلّم الحكي، وكتابة الرواية؟ لكنّ شيئاً داخلي كان يهمس لي: اصْبر.

لـم أكـن أودّ مبادرته في الـكلام. لكيلا يجرني لسـاني، (المعلّق، بعنايـة، على جدار قلبي!)، إلى الحديث عن أمـر يعكّر صفاء الجو. ارتشـفتُ المزيد من القهوة. وسـرعانَ ما وضع السّاردُ أوراقه جانباً. وأمسك بالصورة المعلومة، وقالَ لي:

– الأكيد أنّك ظننتَ سردَ البارحة نشازاً؟

لـم أردّ، فكـرت: هل كان يسـمعني حيـن كنتُ أفكـر؟! واكتفيتُ بالنظر إليه.

– لقد تعمّدتُ ذلك، وهو أوّل درسٍ لك في السرد.

لم أفهم قصده، بقيتُ مشدوهاً أمام زعمه بأنّ سردَ أمسِ كان درساً. لكني لم أردّ ثانيةً. مما جعله يضيف:

– لا تقلـق، سـتعرف، فيما بعـد، ماهية هذا الـدّرس. الآنَ كلّ ما عليكَ فعله هو الإنصاتُ جيّداً لما سأسردُهُ.

لكنّ هذه المرة، وبسببٍ من شبه اقتناعي بكلامه، أجبته:

– حسناً، سيدي، كلّي آذان مُصغية!.

(5)

– بعد مرور سبع سنوات على ولادة محمّد، أي في عام 1942، كانت بني شيكر أرضاً غير صالحةٍ للعيش بتاتاً، كانت المجاعة تنقضّ على الحيوان قبل الإنسان. ندر فيها المأكلُ والمشرب، وكثُرت السرقة. وقتذاك، كان من يجد رغيفاً يتناوله، كمن حصل على فرصة ثانية للعيش.

في هذا الجوّ البائس، كان محمد يلعبُ، مع أقرانه، في الحي. كان يشعُر بسعادة عارمة حينما يخرج من المنزل الكئيب. يشعر بالسعادة التي تقدّمُها له حرية التخلّص من بؤس البيت. لكنها حرية سرعان ما تنقضي عند غروب الشمس؛ لأنه سيكون مطالباً بالعودة إلى المنزل، وإلا فإن الأبَ سيريه الشمسَ وهي ترقص في سماء اللّيل!

كان محمد، بصلعته ولباسه البالي وخفّيه المهترئين، جالساً تحت شجرة عجفاء مع صديقه. كانا متعبين بسبب الرّكض واللعب. أخذ في يده غصناً صغيراً، وقطعة كرتون بالية الأطراف؛ إذ كان يلهو بهما. نظر إلى صديقه متأمّلاً ملامحهُ، ثمّ سأله:

– مين تْخْسْـذْ أدُوراذْ خمي غا تْمْغـاذ؟ (ماذا تودّ أن تصبح حينما تكبر؟).

– نشْ خْسْـغ أدوراغْ أمْ بابـا ذاياز (أودّ أن أصبح، كأبي، رجلاً). إشكْ أ محمد مينْ تخسذ أدوراذ؟ (وأنتَ يا محمد، ماذا تودّ أن تصبح؟). أجاب الصديق، وتساءل في الوقت نفسه.

ضحك محمد ورأسـه مطرق أرضاً. فكّر في سـذاجة صديقه. أما هو، فلم يكن مقتنعاً بأنه إذا أصبح رجلاً سـيكون قد حقّق مبتغاه. أخذ الغصن وقطعة الكرتون مشيراً بهما إلى صديقه، وقائلاً له في الوقت ذاته:

– نـشْ أوزوغْ أدوراغْ أمْ لْمُعلـم «امحنْـد» رانّـشْ سْـنغْ أذاريغْ أذْغاغْ. (أنا أودّ أن أصبح، كالمعلم «امحند» تماماً، قادراً على الكتابة والقراءة).

لـم يفهم الصديـق ما كان يرمـي إليه محمد بكلامـه «الغامض» هـذا، فبقي برهة يحدّق ويحملق فيـه، فيما كان محمد يحاول أن يخطّ بالغصن على ورقة الكرتون.

فـي هذا الجوّ الطفولي البـريء، يأتي، فجأة، صديق آخر لمحمدٍ، مُسْرِعاً، يخبرُهُ بأن منزلَهم صار ملجأً للنواح والعويل. لم يدرِ محَمّد، ابن السـابعة من العمر، ماذا يفعل. أطلق ساقيه للريح، وراح يركض نحو المنزل. وجد أمّه تبكي واضعة رأسها بين يديها. أخبرها:

– يمّا مين إيوقعنْ؟ (أمي ماذا حدث؟).

– خاريـش يموث أمينو، (خالُك ماتَ يا ولدي). وأضافت، وبنبرة أشـدّ حزناً، ثيفقّاح أوكينْتْ أذانـغ حَيْذْنْتْ (المصائب لا تريد أن تبتعد عنّا).

لـم يجد محمّد، المصـدوم بخبر وفاة خاله، سـوى أن ينخرط في البـكاء هـو الآخر. في الوقت الذي تسـيل دموعه الحـارّة على خدّيه المتّسـختين، راسـمةً بذلـك طرقاً بيضـاً على وجهـه، راح يفكّر في المكان الذي سـيذهبُ إليه خاله بعدما مات. كان يودّ أن يسأل أمّه عن الأمر، إلا أنه خاف عاقبة ذلك في يوم حزين، غير ملائم، كهذا.

توجّه نحـو أخيه الأصغر، حملقَ فيه بعينيـنِ متعبتين من البكاء. تساءل في قرارة نفسه:

– لماذا لا يبكي مثلنا جميعاً؟

اضطجع، في ركن قصيّ، على الأرض العارية.

فنامَ وقد أنهَكَهُ النحيبُ.

* * *

فـي المسـاء، كان محمّد لا يزال نائماً عندما عـاد أبوه إلى البيت. دخـل الأب وليسـت على وجهه أبسـط علامة قدْ تحملُنـا على القول إنـه أيضاً كان حزيناً إزاءَ ما حدث. دخـل بعنجهيته المعلومة. بألفاظٍ منحطّـةٍ عيّـر الأمّ، التي عـادت منذ برهة من عنـد دار أخيها الفقيد.

سألها ما إذا كان هناك ما يسدّ به جوعه. أجابت بالسّلب. عاوَد شتمها ولطَمَ، بقوة، وجهها حتى انتفخ جيب عينها الأيسر. لمحَ محمداً وهو منكمشٌ في ركن البيت مثل هرّ. هرع نحوه، ركله على أسفل ظهره بقوة جعلتْهُ يقفزُ على رجليه في غضون ثانيتين. تألّم محمّد هارباً نحو أمّه. أمّا الأخ الصغيرُ فلم يحرّك ساكناً؛ لأنه لم يكن يدري ماذا يجري أمام عينيه أصلاً.

* * *

كان الوضعُ يزدادُ سوءاً ببني شيكر يوماً بعدَ يوم؛ إذ إنّ الوضع لم يكن يغري، أبداً، بالبقاء في هذه القرية التي كانت، سابقاً، مضرب المثل في خصوبة أرضها وخيراتها. لذا قرّر الأبُ أن يهاجر، بصحبة أسرته، هروباً من المجاعة، إلى مدينة طنجة، معتقداً أنه السبيل الأوحد للنجاة من الموت الذي يهدّدهم في القرية. والأولاد تتمزّق أحشاؤهم بسبب الجوع، مرّت عليهم أيام وهم يتمنّون أن يأكلوا قطعةَ خُبز، ولو كانت حافاً.

في صباحٍ شديد الحرارة، خرجتِ الأسرةُ من منزلها متوجهة، سيراً على الأقدام، إلى طنجة. المسافة بين بني شيكر وهذه المدينة تصل إلى مئات الكيلومترات. ولذلك، فالتفكير في اجتياز هذه المسافة، بما فيها من شقاء، وخوف من قطّاع الطرق، وصبر على الجوع، ليعدّ مغامرةً أصعب من البقاء، في المجاعة، ببني شيكر.

هنا سأقفز على بعض الأحداث، التي قدْ لا تكون ذات أهمية، لأن غايتي من هذا السّرد، التعبيرُ عن مأساة محمّد الشديدة. سأقفز

علـى بعضـهـا من مثل ما لقيته الأسـرة من مخاطر فـي طريقها إلى طنجة (قطاع الطرق، الكلاب المسعورة، رائحة الجيف النّتنة، صوتُ إطلاق الرّصاص من حين لآخر...)، أما وحشـية الأب إزاء أسرته، فذلك من المسلّمات التي يمكنك أن تستنبطها بنفسك، وبكل سهولة...

إذاً، فلنعد إلى السّرد.

بعد أيام مُرهقة من المشـي، وصلَتْ، أخيراً، الأسـرة إلى طنجة. ذَهِـلَ محمّـدٌ لمـا رآه بالمدينة، فهو لـم يعهد ذلك في قريته البسـيطة بالريـف، لذلك بقي مشـدوهاً لزمن طويل أمام البنايات الشـاهقة في المدينة التي سيعيش فيها.

كانَ يظنّ أنه فورَ وصوله إلى طنجة سيأكل كلّ ما يشتهيه بمجرّد أن يطلـب مـن أمّه ذلك، لأنها قالت له، بالريف: «***سـنهاجر إلى طنجة. هناك خبز كثير. لن تبكي على الخبز عندما نبلغ طنجة. الناس هناك يأكلون حتى يشـبعوا***». كانت ترنّ هذه العبارة في ذهنه منذ رحيله عن بني شيكر؛ إلا أن هـذه الرّنـة أخذت تتلاشـى، بعـد أن أخذ الواقعُ يعـزفُ رنّاته الخاصّة...

* * *

محمّد، الذي بدأ يعي مرارة الحياة، صار يحسُد أخاهُ كونه لا يزال صغيـراً عن الوعي بمـا حوله. هكذا بدأ محمّد يربـط، ومن دون أن يشعر، الوعيَ بالمرارةِ والأسى...

* * *

في طنجة الكبيرة، لم يستنفد محمد طريقاً إلا وسلكه ليبحث عن الخبز. فمرة يُنافس أقرانه في التنقيب عن بقايا الطعام في مطارح الأزبال، ومرة يكتفي بالبحث عن الجيف الملقاة في الخلاء...

إنه الخبز...

من أجل الخبز وحده يقوم بكل ذلك، لكنّه لم يخطر بباله، يوماً، منذ قدومه من بني شيكر، أن يسرق أحداً. كان محمّد ذا روح ريفية تأبى أن تسمح لنفسها خرق أعراف المجتمع الريفي. إلا أنه أدرك، فيما بعد، أن لا خيارَ مع الجوع: لا خيار مع الخبز...

في مساء كئيب، بالنسبة إلى محمّد وأمّه على الأقل، عاد الأب كعادته غاضباً إلى البيت (الذي إذا زرتَهُ، ستشعرُ أن هذا المكان الذي نحن فيه أرحب بكثير)، ارتمى على الحصير البالي المفروش، بلامبالاة واضحة، في وسط البيت. راح يدخّن بشراهة تخنقُ مَن هم حولَه، لا سيما ابنه الذي كان مريضاً جدّاً. كان يرقب الطفلَ وهو يسعل بقوة، سعالٌ جعله يبصق من فمه دماً. تقزّز الأبُ من المنظر، أخذ ابنَهُ بين يديه، انقضّ على عنقه. خَنَقَهُ. فمات.

ستلاحظ أني سردت الحدث الأقوى والأهم في القصة كلها، بكل برودة دم: «أخذ ابنَه بين يديه، انقض على عنقه. خنقه. فمات». السبب الوحيد في ذلك يعود إلى أن الحدث نفسه وقع بكل برودة دم. ذلك ما يجعلني أنجو من أصابع اتهامك، وأصابع اتّهام القارئ الذي لا يكف عن ملاحقتي.

كان محمد يظنّ أن تهديدات أبيه: سأُذهِبُ روحَك، سأقتلك، سأذبحك... كان يظنها مجرّد تعابير للتهديد لا غير؛ لكن ما إن رأى المشهد، حتى صار لا يطيق المكوث حِذاءَهُ لحظةً واحدة. أمّه المتواطئة حدّ الخنوع، كانت تحاول أن تمحو هذه الذكرى اللعينة من ذاكرة محمّد، إلا أنها لم تستطع ذلك بالمرّة. إذ صار محمد يبغض أباه كثيراً، يبغضه إلى حدّ يجعله يقتله آلاف المرات في اليوم، يقتله في خياله الواسع!

طفولة محمّد، وبعضٌ من شبابه أيضاً، راح في البحث عن الخبز. زاول «مهناً» عديدة: ماسح أحذية، بائع سجائر، بائع جرائد، حمّالاً، نادلاً... رأى العالم في وجهه الأسود. عانى كلّ مرير. إلا أن فكرة كانت لا تبرحه، ولا تزالُ ترنّ في خاطره: أن يصبح مثل «المعلم امحند»، المعلم الذي رآهُ في المدرسة التي لم يدخل إليها...

لم يكن يهجس بأن يصير معلّماً، بالقدر الذي كان يهجس بأن يتعلّم الكتابة والقراءة، ويصبح قادراً على فكّ رموز الجرائد التي يبدأ في بيعها، كل يوم، من بزوغ الفجر إلى غروب الشمس. وفي الليل، قبل أن يخلد إلى النوم، يحاول أن ينسى كل أَلَمٍ أَلَمَّ به طوال اليوم، فيبتسم في الظلام، ويتخيّل نفسه ممسكاً بجريدة يقرؤها، ودفتر يكتب فيه ما شاء من الكلمات.

محمّد.. هذا الطفلُ الذي خلّدتْهُ آهاته ومأساته..

(6)

– هل أنصتّ جيداً لما سَـردته؟ قال السارُد وهو يرمقُني بنظراته الغامضة.

– بكلّ تأكيد، أعجبني سردُكَ، ولو أنني لا زلتُ لا أفقهُ شيئاً فيه... فـي الواقع، أعجبنـي أنك حكيت ما حدث في زمن طويل في غضون مدة وجيزة، أقصدتَ إلى ذلك؟ أجبته، ثمّ سألتُهُ في اهتمام.

– رائـع! لقـد تنبّهـتَ لهذا الأمـر، وبما أنك اكتشـفت ذلك فلأنّك أنصـتّ جيداً، وبما أنـك أنصتّ جيداً، فهذا يعني أنـك فهمت الدّرسَ الثاني من سلسلة دروسك وهو: الإنصات.

قـال ذلك في حماس شـديد، ودون أن يجيب عن مغزى سـؤالي، ودون أن يسـمع تسـاؤلاتي الأخرى أيضاً، نهض السارُد من مقامه، وتوجّـه نحـو خزانته، أخـذ كتاباً عنوانـه الخبز الحافـي، والأوراق التـي كانـت ملقاة علـى الحصير، وكذلـك الصورة التـي أثارت كلَّ هذه السّـرود، وتوجه نحو باب (المنزل أو الغرفة، ليكن ما شـاء...)، وأضاف بنبرة متعجّلة:

– سـأخرُجُ الآنَ، لي موعد ضروري يجب أن أحضره. سـأعود لاحقاً. اعتن بنفسك. إلى اللقاء.

– إلـى اللقـاء. أجبته بعدما أغلق الباب المهترئ بخفة، فتسـاءلتُ في نفسـي: ما فائدة الردّ بعد تصفيق البـاب؟ ففكرتُ أيضاً: دعنا من تفاهاتك هذه، وانظر ماذا يمكن أن تفعله الآن لتزجية الوقت.

واضعاً رأسي بين يديّ، أفكّر في سلاح ناجع ضدّ هذه الوحدة التي راحت تُفتّتُ ما بقي من قوتي. تذكّرتُ قول السّـارد: «اعتبر الخزانة خزانتك». قفزت، دون أن أشعر، إلى الخزانة الصغيرة، محملقاً فيها، محتاراً: أي كتاب سأختار للقراءة.

وقعـتْ عيناي، أخيراً، على كتاب عنوانـه «Don Quijote de la Mancha».

ومـا إنْ بدأتُ بتصفّح الكتاب، حتّى اختطفت عيناي، مرّةً أخرى، نظرةً على ورقة ملقاة تحت الكرسـي. فكرت: لربما نسـيَها السـارِدُ هنـا. توجّهتُ صوب الورقـة، أخذتُها بينَ يديّ، فـإذا بي أرى جزءاً من السيرة التي قصّها عليّ السارِدُ مكتوبةً بخطّ يده. حاولتُ أن أضع علاقـة بيـن الورقة وما سـرده صاحبنا؛ إلا أنني تركـتُ ذلك إلى أن يعود، لأحصل عن المعلومات بطريقة ما...

أعدتُ الورقة إلى مكانها، وعُدتُ إلى كتابي الذي نالَ إعجابي منذ الوهلة الأولى، لا سـيما بعد أن تذكرتُ أني قرأتُ فصولاً منه سـابقاً. الحقيقـة أن قراءة كتاب مثـل «دون كيخوت» ليحتاج من المرء زمناً

طويـلاً، فهو كتاب ذو وجهيـن، وجهه الأول مقدّمٌ للقـرّاء العاديين، الذين يكتفون بالاسـتمتاع بأحداث القصة السـاخرة فقـط، أما الوجه الثانـي للقصة، فهـو وجه لا يُضحك البتة؛ إنـه الوجه الأصعب فهماً وتفسيراً.

أثنـاء قراءتي لـ«دون كيخوت»، فاجأني لعـبُ المؤلف بالحكي. فهو، بدءاً، ينسبه إلى كاتب عربي، وفي داخل الرواية يوجد ساردون كثيرون، وأحياناً، يحكي السارِدُ، الموجود داخل الرواية، سردَ سارِدٍ آخـر، وبـذاك يضعك سـيرفانتس أمام متاهة من السـرود، لا يمكنك التخلص منها إلا بالمتابعة الدقيقة. فَلَكَمْ أودّ أن أكون قادراً، أنا أيضاً، علـى فعل ذلك! أمرٌ مسـتبعدٌ جدّاً، (لكنه يمكن أن يكون مُسـتَعْبَداً إن أردت، قلتُ في سـريرتي) لا سيما أن هذا السارد، الذي صفق الباب في وجهي، لا يريدُ أن يعلّمني، بطريقة واضحة ومستسـاغة، مغزى هذا السّرد.

فما الحلّ إذاً؟

الحلّ هو أن أنتظر عودته. أنا لن أسكت عن حقي. لقد وعدني بأنه سيساعدني، وها هو يغيب عني تاركاً إياي في غيابات هذا المكان!!

لكن، والحق يُقال، لا أشـعر بأدنـى ضيق في هذه الغرفة المنزلية أو (المنزل الغرفوي(!، لذلك سيكون عيباً أن أعاتبه! هأنذا بدأتُ أوقد حرباً بين أفكاري وأحاسيسي. يجب أن أنضبط. إذاً؛ فلأعُد إلى «دون كيخوت»...

السؤال الذي ظل مُرافِقي منذ أن تعرفتُ هذا المؤلف الضخم، هو: لماذا نجح كتاب «دون كيخوت ذي لا مانتشا» كل هذا النجاح؟! قد لا يجد ساذجٌ مثلي، في الحكي، جواباً شافياً عن هذا السؤال الأصعب، لكن، يمكنني أن أفكر، كأي إنسان، وأقول: لولا أن سيرفانتس لم يأت بجديد في عصره، لو أنه لم يهجُ الفروسيةَ وزعماءَها وكُتُبَها بطريقة استثنائية، لو أنه لم «يُجرّب»، لما نال شهرتَهُ تلك. إن في كتب مغمورة من الأحداث ما هو أفضل بمئات المرات من بعض أحداث «دون كيخوت»، لكن نظرة المؤلِّف، فلسفته، إرادته، حبّه، جعلت من روايته خالدةً!

أجدني، ودون أن أشعر، مرة أخرى، أمثّل دور الناقد الذي لا كلمة تعلو فوق كلمته!

يا لتفاهتي!!

* * *

في الساعة التي لا أعرفُها، كانت عيناي تطبقان بشكل يغري بالنوم. لذلك لم أجد غير الاستسلام له. فحلمت: أني كنت تحت شجرة أوراقُها كثيفة. كنتُ بين أشخاص لا أعرفهم، يتحلقون حولي في شكل دائرة، كنتُ أسرد لهم هذه القصة (لم تحضرني القصة بكل تفاصيلها، لكن يمكن، على الأقل، أن أضع يدي على أهم ما فيها):

كان يا ما كان في قريب الزمان، كان هناك شاب في سنيّه الفتيّة، كان يودّ أن يصبح رساماً ماهراً؛ لكن لا حظّ يقف إلى جانبه.

وذات مرة، وقف أمام المرآة مخاطباً نفسه بحماس شديد:

– يجب أن أصبح رساماً مهما كلّفني الثمن، يجب أن أصبح رساماً...

وهو يكرّر هذه العبارة في صوت عالٍ، ثم أعلى، فأعلى، سمعه أبوه من غرفته المجاورة، هرع إليه مهرولاً، وسأله في لهاث:

– ما بك؟ أجُننت؟

أحنى الشاب رأسه في توتر شديد، ولم يرد.

– ما بك؟ قل، ماذا دهاك؟؟

لما يزال مطرقاً مطبقاً.

– لا تريد التحدّث إذاً؟ حسناً. لحظة فقط!.. همّ الأب بإخافة ابنه.

ما إن رأى الشاب تغيُّرَ قسمات وجه أبيه، حتى اعترف له، ومخفضاً رأسه أجاب:

– لا شيء يا أبي سوى أني أودّ أن أصير رساماً محترفاً، هذا فقط.

– هممم، هكذا إذاً، وما العمل الآن؟

– لو كنتُ أعرف ما العمل، لما وصلتُ إلى هذه الحالة السيئة...

صمتَ الأب وهلةً، ناظراً من النافذةِ إلى السُّحُب المتناثرة في كبد السماء، ثم قال:

– حسناً، اسبقني إلى الحديقة ريثما ألحق بك.

– حسناً أبي.

بعد لحظات، لحق الأب بابنه، وكان برفقته رجل آخر، لطيفُ الهيئة حَسَنُها، كثيف اللحية والشعر أبيضهما، ملامحه منشرحة، وبسمة لا تفارقه. جلسا بجانب الشاب على كرسي الحديقة، وقال الأب مخاطباً الرجل:

– هذا ابني الذي حدّثتُكَ عنه. وأضاف موجهاً كلامه نحو ابنه: وهذا الرجل رسام محترف وماهر للغاية، سيساعدُكَ على حلّ مشكلتك.

انفرجت أسارير الشاب وانشرحت، أبدى فرحاً شديداً بوجود الرسام إلى جانبه. ولم يلبث الأب حتى أضاف قائلاً في سرعة كبيرة:

– أنا سأذهب الآن، لدي أشغال مهمة، خذا كل راحتكما، إلى اللقاء.

ودّع الشابُّ أباهُ، واستغل الفرصة كي يخبر الرسام بمشكلته العويصة، ويطلعه عن الأسباب التي جعلته يعشق الرسم كل هذا العشق. فأبدى الرسام تفهمه الكبير، وقال:

– أنا أفهمك، وبما أنني عشتُ الظروف نفسها، سأحكي لك قصتي مع الرسم، وعليك أن تستنبط منها العبر التي تعينك على تحقيق مبتغاك.

– موافق وبكل سعادة. قال الشاب مصغياً باهتمام بالغ.

– إذاً، فلتنصت جيداً لما سأسردُه:

ذات مـرة، لمـا أخذني أبي معـه إلى معرض للوحـات ليوناردو دافنتشـي، كنت لا أولي أي اهتمام لهذا الفن، وما كان ذهابي بصحبة أبـي إلـى المعرض سـوى إرضـاء لرغباته هـو، لأنـه كان مولعاً بالرسـم... كم كان يسـعدني حينما كنتُ أرى توهـج عينيه وهو يمر بجانب اللوحات.

أما أنا، فلم أكن أسـتمتع باللوحات المعلقة على الجدران، بقدر ما كنت أستلذّ انبهارَ الناس بها.

بعـد انتهاء المعـرض، اقتنى أبي ثلاث لوحات منـه. علّق اثنتين منهـا، بعناية، في بهـو المنزل، والأخرى علقها علـى جدار غرفتي المقابل لسـريري مباشـرة، وكانت هذه اللوحة عبارة عن امرأة ذات شعر أسـود، وهيئة محترمة، وعينين كنتُ أُحسّ بهما ترقباني طوال مكوثي وتنقّلي بالغرفة.

وهكذا صرتُ أغلّق عيني ليلاً على قسـمات هـذه اللوحة المثيرة للانتباه، وأفتّحُهما صباحاً عليها. حتى أصبحتْ جزءاً مني.

وفي يومٍ من الأيام، زارني ابن عمي الذي يقطن بالبادية. زارني، كما يفعلُ كلّ مرّة، إلى المنزل. كان أبي لا يستسيغُ حضور الفتى بتاتاً، ولولا أنه كان يستحي من عمي، لزجره قائلاً: اغرب عن وجهي، ولا تعد إلى بيتي أبداً. ولكن، لم يكن بغضُ أبي لهذا الفتى من دون سبب، بل بسـبب كونه يحوّلُني إلى مشـاغب كبير جداً حينما يزورنا. لذلك،

فمـــا إن يعود إلى البادية حتى أعود أنا أيضاً إلى حالتي الأصلية، إلى هدوئي وسكينتي.

كان ابن عمي ينام معي في نفس الغرفة، كنتُ أنزلُ له عن سريري لينـــام مُرتاحاً، وأنام أنا على الأرض. كنتُ أحبـــه لأنه كان تلقائياً، لا يخفي في قلبه أي حقد وأي بغض لأي كان. ولذلك كنت أهديه أشيائي المفضلة تعبيراً مني عن محبتي الكبيرة له.

ذات مســـاء غائـــم، عُدنا، أنا وهـــو، من ملعب حيّنـــا، بعدما بدأتِ الســـماءُ تمطرُ. وصلنا، ثم دخلنا إلى غرفتي، وابن عمي هذا لا يزال يلعـــب الكرة بركبتيه حتى داخل الغرفة. رجوته أن يتوقف عن اللعب لأن أبي سوف يغضب كثيراً، لكنه لم يبالِ بكلامي.

وفجـــأة، ضرب الكرة، بكلّ قوته، ناحيـــة الجدار الذي عُلِّقتْ عليه لوحتـــي المفضلة. في المرة الأولى، نجت لوحتي من كرته، غير أنّها لم تنجُ في المرة الثانية. انكسرت، حتى صارت فُتاتاً لا يجمعُ ولا يُلأَم.

كاد يخرج قلبي من مكانه من شدة الهلع. صرختُ مسعوراً:

– لوحتي... لوحتيييييي... انظر ماذا فعلتَ بها أيها الوغد، اغرب عن وجهي الآن، اغرب، هيا، اغرب عن وجهي أيها الحقيييييير...

رمقني الفاعل بنظرة شـــزراء، وخـــرج دون أي مبالاة بما حدث. بقيـــت وحدي في الغرفـــة، أبكي، وأبكي. فكّرت فـــي الحل، فلم أجده. فكـــرتُ حتّى أعيانـــي التفكيرُ. لكن، لا فكرة تعنّ لي. بقيت في غرفتي

أياماً متتالية دون أن أخرجَ منها. شارداً طول الوقت، حتى إني لم أكن آكل من الطعام إلا القليل.

وذات صباح مشمس، رحل ابن عمي إلى البادية، فرح كل من في المنزل بسبب حنينهم إلى الهدوء. وفي غرفتي جلستُ، أرمق من النافذة المارين بالزقاق. لفت انتباهي رجل كان يرسم أشكالاً من الوجوه على سور بيتٍ، كان يقوم بذلك بمهارة فائقة. وجدتُ لذتي في مراقبته وهو يعمل. فكرت: لقد ألفيتُ حلاً أعيد به لوحتي إلى الحياة! يجب أن أرسمها.

لكن كيف أفعل ذلك؟؟ أنا لا أتقن الرسم؟ يجب أن أتعلّمه، يجب أن أتعلمه مهما كان المقابل!

انسللتُ إلى مكتبة أبي الكبيرة، انهمكتُ في البحث عن كتب حول الرسم. وجدت منها الكثير، لا سيما أن أبي يحبّ هذا الفن. تهالكتُ على قراءة كل ما من شأنه أن يساعدني، حبستُ نفسي في الغرفة أسابيع عديدة. أبحث عن نبتة الخلود في صفحات الكتب، حتى امتلكتُ نصف النبتة، أي نصفها النظري. وقررت أن أخبر أبي بالأمر لأجل أن يساعدني على امتلاك النصف الثاني من النبتة. نصفها ذو العلاقة بالممارسة والعمل باليد.

وهكذا أحضر لي أبي رساماً إلى البيت، أنشأ يعلمني المبادئ التطبيقية الأولى للرسم، ولأن حبي لهذا الفن لا نظير له، صرتُ أتعلّمُ بسهولة. حتى أصبحتُ قادراً على الإمساك بالريشة، والوقوف أمام

الورقة البيضاء التي تغريني بتلطيخها بكل ألوان الألوان!

كان بإمكاني أن أطلب من أبي أن يشتريَ لي لوحة مماثلة، لكن لم أرد ذلك، إذ كان عليّ أن أخلُقها بنفسي، أن أحسّها ابنتي الوحيدة، أن أحسّها من لحمي ودمي!

فما كانت أشهر حتى وُلدَتْ لوحتي من جديد، ويا لفرحتي العارمة آنذاك! كنت أشعر أني أبٌ حقاً!

ومن ثمة، أصبحت أحب الرسم حباً جماً، تخليتُ عن كلّ اهتماماتي الأخرى، لأصرف كل وقتي في الرسم، ولا شيء غير الرسم. بدأت أرسم لوحات أخرى ولوحات، إلى أن أعددتُ لنفسي معرضاً، قدمتُ فيه كل ما رسمتُ، فتهالك الناس على اقتناء لوحاتي، وأبدوا إعجابهم البالغ بها، لأنهم كانوا يعتبرونها جيدة جداً.

وهكذا صرت رساماً، وهذه قصتي مع الرسم.

– قصتك رائعة جداً، تحولتَ من شخص لا يهتم بالرسم إلى رسام شهير!.

– لا يهم ما صرتُ إليه أنا، المهم، الآن، هو ماذا استنتجتَ أنت من القصة؟

حكّ الشاب رأسه قبل أن يجيب متلعثماً:

– أيمكنكَ أن تُساعدني على هذا؟

ضحك الرسام ضحكة خفيفة، وأجاب بكل رضى:

– أنــت الآن تعلّمتَ الحماس، وهو أول خطوة لتحقيق منالك، فما دمت متحمســاً لهذا الأمر، فإنك ســتصل إليه لا محالة، فالحماس يولّد الرغبة والإرادة.

وتعلمتَ أيضاً الإنصــات، فالإنصات إلى الروح، إلى القلب، إلى الإنسان الذي يعيش فينا، إلى أقوال الآخرين وحكمهم، سيساعدك إلى حد بعيد في تحولك إلى رسام كبير.

أما الخطوة الثالثة، فاســتنتجها بنفســك، لأنك تســتطيع أن تعرف نفسَكَ بنفسك!

أما الآن، يا عزيزي، فإني سأذهب.

إلى لقاء آخر.

توارى الرسام عن الأنظار، وبقي الشاب يفكر في ما قاله الرجل، نظر نظرة إلى السماء الزرقاء البديعة، وأخرى إلى الأشجارِ الخضرِ الخلابة، تنهّد تنهيدة عميقة، وتوارى هو الآخر، بعيداً عن حياة الكسل والخمول.

أبدى الأشخاص الذين توسطتُهم إعجاباً شديداً بالقصة التي سردتُها لهم، مؤكدين أنهم استمتعوا بها، واستفادوا منها. أما أنا، فلم أكن أشعر بنفس الانطباعات تجاه ما سردتُ، لذلك لم أنبهر إلا من انبهارهم!

وفي غمرة تشــجيعهم على أن أقصّ عليهم حكاية أخرى، أيقظني صوت طرق الباب.

عاد السارد إلى المكان، محمّلاً بأوراقه وكتابين اثنين، أحدهما الكتاب نفسه الذي خرج به، أما الثاني فلم أدرِ عنوانه ولا عما يتحدّث.

ألقى عليّ تحية باردة، وبادرني بوجه عبوس مثير للغرابة. اعتذرَ عن إيقاظه لي لما رأى بقايا النوم على عيني، وأجبته بأنْ لا مشكلة. كنتُ أودّ أن أستخبره عن المكان الذي ذهب إليه، وعن سر الورقة الملقاة أرضاً، لكنني ترددتُ في ذلك. وجدتُ الأمرَ فضولياً حدَّ السذاجة، وأن حالته النفسية الآن لا تساعد البتة. فتريّثت حتى يباشر الحديث.

لكن ما هي إلا لحظات حتى جلسَ القرفصاء مرّة أخرى، وقال لي في لهجة غاضبة:

– كنتُ برفقة شخص يدّعي ذكاءه المفرط. إذ إنه لا يني يؤكد أن بطلَ الحكي من دعاة الفساد والأدب الغث الركيك.

حاولتُ إقناعه بكل ما أملك من حجج بأن آراءه مغلوطة، لكنه ازداد إصراراً على قوله، حتى أنهكني الحديثُ إليه، فانسحبتُ مبدياً غضبي الشديد. وإليك المجلة الموجودة فوق المكتب، سترى فيها كل ما قال من مقال.

أخذتُ أقرأ المجلة بإنعام النظر والبصر، اكتشفتُ أن مقالاً كُتب عن بطل الحكي، يَدعي فيه كاتبه أنه كان مفسداً لطبائع القراء بسرده لأحداث غير محتشمة، فيُسهب كاتب المقال في أن سرداً مثل هذا لا يُنصح بقراءته البتة، فهو يفسد أكثر مما يُصلح، بل إنه لا يَعرِفُ إلى الإصلاح سبيلاً.

اعترتني رعشة، لم أدرِ سببها، فأنا لا أعرف بطل الحكي، وحتى إن كنتُ أعرفه، فأنا لا أتذكّره! مما جعلني أستغرب من اهتمامي الشديد لهذا الأمر! هممتُ لأخبر السارد بألا يغضب، مزكياً قولي بعبارة «بدل أن تلعن الظلام، حاول إيقاد شمعة»، لكن لا شمعة تريدُ أن تتّقد له.

فجأة، وعلى نحو غير متوقع، قال السارد:

– دعنا من هذا كلّه، فلا حلّ أمامنا سوى الحكي، ولا شيء غير الحكي!

صامتاً بقيتُ، أرمق السارِدَ بنظرات مندهشة. إلى أن استسلمتُ لإعلانه بدء الحكي، فما كان لي إلا أن أتابعه باهتمام شديد.

(7)

محمد محمد محمد، الفتى المنكوب!

بعد ردح من الزمن، يستقرّ محمد بطنجةَ بشكل يُكيّفُهُ مع المحيط الجديد. صار له رفاق وأصدقاء، بائسون ومسحوقون، مثله، يجرون وراء الخبز.

سمحت له صداقاته بالتعرف أكثر إلى شوارع طنجة وأزقتها، الليلية منها والنهارية، (إذ إن الليل والنهار سيصيران لغزاً، لا حلّ له عند المسكين!)، لكن عنصرية بعضهم، وتعييرهم له بـ«الريفي القاسي» جعله لا ينسى أصله أبداً، جعله لا ينسى لكمة القدر الأولى.

وكأيّ فتى، صار محمد، في خلوته، يطرح على وحدته أسئلة الوجود الأولى: من أين جاءت الأرض؟ أمي تقول إنه الله هو الذي جاء بها، وعندما أسألها من هو الله، تشير بيديها إلى السماء وتقول: يوجد في الأعلى. لكن إذا كان هو في الأعلى، فلماذا نحن في الأسفل؟

كانت أسئلة، مثل هذه، كبيرة جداً على عقل الفتى، العقل الذي يبدو عميقاً منذ طفولته!

لكن أشـدّ الأسـئلة التي لم تكن تفارقه هي: من أين أتيتُ؟ من أين يأتـي الأطفال؟ رأيتُ بطن أمي ينتفخ، لكن مـا إنْ يصبح بيننا مولودٌ جديـدٌ حتى يعود إلـى طبيعته الأولى؟ هكذا إذاً! بطـن أمي منزل. يا ليتك، يا أخي، لم تخرج منه. يا ليتك بقيت مرتاحاً في بيتك ولم تخرج. لو كنت فعلت ذلك لما قتلك أبي...

فـي كل نهـار يرمق محمد، بعينيه الخائفتيـن، أباه وهو يبرح أمه ضرباً. يضربها بأي شـيء يقع في يديه، ولو كان قِدر ماء ساخن حدّ الاكتواء. محمد لا يحرّك ساكناً. لا يستطيع. يخاف أن يُفعل به مثل ما فُعل بأخيه الصغير...

في ليلة ليلاء، كعادته، يهمد في ركن من أركان البيت، هذا الركن الذي يذيب العظامَ وقت الحرّ ويجمدها وقت القرّ. وفي لحظة بائسـة، توجّه نحو المرحاض قصد إفراغ مثانته من الماء الذي شربه والخبز الحافي. سـمع في غرفة والديْهِ ضحكاتٍ وتأوهاتٍ، تتعالى وتتراقص فـي عـزّ الليل الأدهم. لـم يعِ محمد مـا يفعله والداه في تلك السـاعة المتأخرة من الليل، بل أكثر من هذا، لم يسـتطع أن يسـتوعب أن أباه الشرس، مثل حيوان مفترس، يلاعب أمه ويضاحكها! أراد أن يقترب أكثـر مـن المكان، لكن صـورة الأخ الصغير تلاحقـه كطيف يذكره بموته الذي قد يعصف به في أي لحظة. ارتطمت السادية بالمازوشية، فعاد الفتى إلى مكانه، مانعاً عقله المشاغب من أي تفكير.

أقف هنا قليلاً لأخبرك شـيئاً، أتعلم؟ إن هذه اللحظة كانت مفصلية

في حياة محمد. لحظة تناقض، لحظة اختلط فيها الحابل بالنابل، والليل بالنهـار. صار محمد يظن أن النهار مخلـوق للضرب والمعاناة؛ أما الليـل، فهو للضحـك والتأوهات! بكل صراحة، أنا لـن أظلمه حينما نصل إلى أحداث خاصة من هذا الحكي، ولن أعاتبه على شـيء. إنك لتُحسّ به غصناً شـذبتَه خطـأ فانطلق منه غُصنـان مُتناحران. لكأن حياته هزة أرضية.. ارتجاج صارخ!

يعمل محمد في كل شـيء كي يوفر لقمة خبز أسـرته، لقمة تُقتسم إلـى أجـزاء وأجزاء ينـالُ منها لُقيمة صغيـرة، أما الأب المتسـلّط، فيستأثر بحصة الأسد.

شـهور تمضي، يسـافر رفقة أبيه إلـى وهران. لا يحب السـفر. لأنه يذكره بهجرته من بني شـيكر. طوال الطريق لا يسـمع إلا شـتم أبيه ولعناته، ولا يأكلُ إلا ضربَه وركلاته. وصل الشـقيّ إلى المكان المقصود، واشـتغل في منزلِ أسرةٍ فرنسـية بوهران. أخذ يعمل بكل تفانٍ من أجل أجر لن يأخذه. يستلمه أبوه في مَتمّ كل شهر.

فـي لحظة، (أحسـبها لاإراديـة مهما بدت مقصـودة، ولا تظنني مدافعـاً!)، وبعـد أن أدرك محمـد سـر وجوده البائـس، صار يطفئ نيران غريزته الفتية بأي ماء وُجد. حتى إنّه قرر أن يخلق أنيساً لهذه الغريزة، أنيسـاً مثل الشـجرة – المرأة! تهيّجُ قوانيـنُ الحياةِ محمدّاً، تجعله قنبلة على وشك الانفجار. إلى أن ملّ من كل ذلك، وصار يبغي وجوداً إنسانياً آخر. وجود قد يثبت وجودَه المكلوم.

لم يجد غير صبي صغير، تذكّره رقّة جسده بأجساد النساء. نساء طبعن مخيلاته بذكرياتهن القاسية. القاسية فعلاً. راود الفتى عن نفسه. محمد لا يزال هائجاً، لا يميز بين الجنسين. اختلطا في ذهنه، كما اختلط الليل بالنهار. الطفل يصرخ، يصرخ بكل ما فيه من قوة. يتركه محمد بعدما اجتاحَ النهارَ، من حيث لا يدري، بمنطق الليل!

صفعته الأيام، ندم شر ندامة. وقع في فخ الوجود الذي لم يرحمه.

ولما كانت حياة محمد ملأى بالعراقيل والمطبات منذ نعومة أظافره، غادر وهران، ليس بسبب انحرافه في نظر غيره، ولكن بسبب الحياة. الحياة التي لطمَتْهُ بحيثُ لم يعد قادراً على الاستفادة من مبدأ أساسي، كمبدأ: عدم التناقض.

عائداً إلى تطوان، وإلى المأساة في صورتها المضاعفة، يذرع محمد الشوارع والأزقة بحثاً عما يسدّ به جوعه، وجوع أسرته. يشتغل في الدكان. لم يستطع المكوث طويلاً بالمدينة. قرّر العودة إلى طنجة التي التقفته أول مرة، بعدما لفظته الحياة في بني شيكر. وفي المدينة، سيشهد ثاني تناقض في حياته. يصحبه عجوز أوروبي. يراود العجوز محمداً عن نفسه. يستسلم في خوف شديد. ينقضّ العجوز عليه كطفلٍ شرهٍ يمتصّ حلوى. محمد يبكي في داخله، يبكي صفعات الحياة! ينتهي الطفلُ من لعِبِه الخشن، يمد نقوداً إلى محمد، الفقر يعميه. ينقض على المال، ويغادر هذه اللحظة البئيسة. التي جعلته يتساءل فيما بعد: لماذا هو منحرف؟!

تلاحق التعاســة محمداً حتى إلى أشد المناطق حساسية. لم يرد هو ذلك. التناقض أراد، الغرابة أرادت، الفقر أراد، الجوع أراد..... ..... وأيضاً.. لأن الخبز أراد..

محمد محمد محمد، الفتى المنكوب!

مُنبَجَسُ الحكي

(1)

أحسستُ يدَ السارد تُربّتُ على كتفي حين أغمضتُ عينيّ مفكراً في مأساة البطل. فتّحتُ جفنيّ على انقطاع الحكي. فاتحتُهُ بالكلام كمَن يتخلص مِن أحمال ثقيلة:

– ألهذا الحدّ يسمحُ الحكيُ بالتنفس؟!

– أكيد، الحكيُ هواء. يقنعنا بأنه ما زالَ على الأرض ما يستحقّ الحياة. تصورتُه كونفوشيوس حينما رصّ جملته بحكمة بالغة.

وأضاف مبتسماً:

– يبدو أنكَ استوعبتَ الدرسَ الثالث والأخير. أنتظر منك أن تحكي ما بقي من القصة، بعدما أنتهي من قيلولتي، كدليل على تعلّمك.

ودون أن ينتظر رأيي، استلقى على فراشه، واضعاً حاجزاً منيعاً بيننا: حاجز النوم.

ها أنا ملقىً، مرة ثانية، في دوامة التفكير. ماذا عساي أن أفعل؟ الحكي صعبٌ، ولكن لِمَ يستسهلُهُ السارد؟ عليّ أن أقوم بخطوة ما.

المشـكلة العويصـة أنني لا أعرف شـيئاً عن البطل كـي أتمّ القصة. استسلمتُ للحيرة، فجرّتني إلى المكتبة الصغيرة...

بكل يأس أخذتُ كتاباً عنوانه «الأيام». رفعتُ عيني، بتعبٍ، أعلى الكتاب لأرى اسم المؤلف. لم أر شيئاً. الكتاب ممزق الغلاف من جهة الاسـم. بقيت من الحروف الطاء والسين والنون. لم أبالِ بذلك. فتحت الكتاب، أخذتُ نفساً عميقاً لبدء القراءة. الصفحات الأولى أخبرتني أن الكتاب سيرة لشخص آخر؛ لأن الكاتب لا يستغني عن ضمير الغائب.

لم تكن برغبتي متابعة القراءة بسـبب اليأس، لكن الصبي الأعمى الـذي غالب الصعاب، واجتهد في الدراسـة رغم فقـده البصر، رفع مـن همّتي. تحولت من قارئ يائـس بائس، إلى جائع يأكل الصفحات بنهم شـديد. واصلتُ القراءة حتى النهاية، اكتشفتُ أن المؤلف هو طه حسـين، يتحدث عن سـيرته بضمير الهو، أعجبتني الطريقة. بدا لي كمن يتجسـس على أحدهم. وبدا لي كتابه كقطار طويل، تشدّ الواواتُ بين أجزائهِ: لا أمتن من الواو إذاً!

سـاعدتني «الأيام» كثيراً على شـحذ الهمة، والاسـتعداد لتحدي السـارد، وددت أن أحفظ منها أسـاليب بعينها كي أدرجها في حكيي، وأتباهـى بها أمام السـارد. لكنـي فكرت: لا تكن عالـةً على غيرك، كن أنت كما أنت، دع الأسـاليب تختمر عجينةً في ذهنك، وألقها بكل حرية، مهما كانت النتيجة!

أعـدتُ الكتاب – المسـاعد إلى مكانه. طفقـتُ أفكر في أي حدث

يمكنني أن أضع فيه شخصية بطل الحكي. الحزن... الحزن طغى على القصة منذ البداية. سأواصلُ في مسار الحزن، يجب أن أوجج القصة بالحزن. لكني ما دمت سأعترف فيها، فقط، بحياة البطل، (إذ ما السيرة سوى الاعتراف؟) فسيجعلني ذلك قابعاً في الدرجة الصفر... لا مشكلة، سوف أنمقها قليلاً، لن أبقى معترفاً فقط، فهذه مهمّة آلات التسجيل.

في غمرة انتظاري أن يستيقظ، فكرتُ في حلمي قبل وصول السارد، كيف استطعت أن أحلم كل ذلك؟ في الحلم استطعتُ أن أسرد، أما في الواقع، فلا! يا لها من سخافة!! (أيها القارئ، لا تُعد قراءة هذه التفاهة، سِرْ رأساً نحو النّهاية)، فكرتُ في نصائح الرسام للشاب. إنها ثلاث ربما، أو أربع، لا أتذكر، (آمل منك، صديقي القارئ، أن تعود قليلاً إلى الوراء، وتخبرني كم من نصيحة قالها الرسام؟؟ لا لا، دعك هادئاً، سأعود أنا، أنت اقرأ، فقط اقرأ!).

بعد استرجاعي المضني لشريط الحلم، اكتشفت أنها ثلاث نصائح: الحماس، والإنصات، واعرف نفسك بنفسك. دعوني أفتح، هنا، قوساً آخر، لا تتذمروا من أقواسي، لأنها أقواسكم أيضاً. (مرة حلمتُ أني عدتُ إلى الوراء عشرات القرون من الزمن، خارج مدينة خيالية، مكتوب على بابها: اعرف نفسك بنفسك. لما عرفتُ نفسي بنفسي استيقظتُ من الحلم. سأغلق القوس). هل ستنفعني نصائح الرسام؟ إنها تشبه، إلى حد بعيد جداً، دروس السارد!

لا يهمّ، سأعمل بها.

توجهتُ إلى المطبخ، أعددتُ فنجان قهوة. ارتشفته بهدوء. في المطبخ، عُلّقتْ لوحة لم ألقِ لها بالاً في السابق، كانت لوحة تشكيلية. تمثل صورة رجل ذي شارب كثيف، مدور الوجه، عبوس، تقاسيم وجهه توحي بالغرور. لكني لم أهتم بذلك كله بقدر ما اهتممت بنظرته الشزراء الغريبة. كان يبدو كمن يود أن يُنازل أحداً. بقيت أنظر إليه وأنظر، دون أن أرمش. بعد لحظات من حملقتي، أخرج يده من اللوحة، أمسك بي، يريد أن يخنقني، قائلاً بلهجة عنيفة: «أتعرف من أنا؟ أنا مارسيل بروست الذي أدهش العالم، أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي، وأسمعتُ كلماتي من به صممُ، من أنت كي تبحلق فيّ هكذا؟ أديبكم «الكبير» أندري جيد اعترف بأدبي، سحقتُهُ، انتصرتُ عليكم أيها التافهون!». ارتجفت فرائصي من الهلع. لم أخف من بروست (إذ لو كان وجوده واقعاً، لأخذتُ معه «سيلفي») بل ارتجفتُ من كونه خرج من اللوحة!!

بعدما رمشتُ، عادتْ الأشياء إلى أماكنها. توهمتُ كلّ ذلك بسبب الخوف من الحكي، مشاعري متقلبة كأمواج البحار. استيقظ السارد بسبب سماعه لصراخي، استفسرَ عن الأمر. أخبرتُهُ أنها نوبة توتر فقط، فحاول تهدئتي. طلب قهوة، فأمددتُه بفنجان. انتصب جالساً، وقال لي بحنوّ:

– ممَّ أنتَ خائف؟

– من الحكي؟

– ولِمَ؟

– ربما لأني لا زلتُ مبتدئاً.

– لو كان الحساب يبدأ من الرقم 1، لانتهى، ببساطة، إلى الرقم 9.

– من اكتشفَ الصفر؟

– المبتدئون.

انفرجت أســاريري لكلامه. فــاض قلبي عزيمة، وقال لي ما كنتُ أنتظره:

– هيا، ابدأ بالحكي!

فكرتُ: أنا لستُ شهرزاد، وأنت لست شهريار. أنا أنا، وأنت أنت، ومن هو بطل الحكي؟ بطل الحكي، طبعاً، هو بطل الحكي. لكنه، فوق ذلك كلّه، هو الناس الأشقياء. قلتُ له متبسّماً في شيء من الحماس:

– فلنبدأ!

(2)

«فلنكن موضوعيين قليلاً، هل هو من السهولة بمكان أن نمتلك طفولة شقية؟» سيوران ينفي الأمر، لكن محمداً لم يمتلكها فقط، بل امتلكها غصباً. ما أصعب ذلك!

بعد رحلة «مهنية» حافلة بالارتكاسات، يعود محمد ليزاول مهنة أخرى. مهنة التهريب. (حياته كلّها مُهرّبة، ما الذي أحوَجهُ إلى التهريب؟). مهنة غير شريفة لكنه زاولها بشرف، كان وفياً جدّاً لصاحب العمل، حتى أصبح ثقة في أعين أكثر الناس غدراً. مرةً، قررت ثقته هاته أن تطلبه كي يمد إليها يديه. فمدّ، المسكينُ، يديه. صفّدتْهُ، وقادتهُ، بعد ذلك، رأساً، إلى السجن.

أن تُسجن يعني أن تفقد هويتك، مؤقتاً في حالة السجن المحدّد، أن تشعر بروحك تغادرك، تسافر بعيداً بحثاً عن الحرية، لكن شبحك المذنب يبقى مراقباً الفجوات بين القضبان، مفكراً في إمكانية التحول إلى حشرة، نعم إلى حشرة. كم هو الإنسانُ انتهازي!

لكن محمداً لم يشعر بذلك، أصدقاؤه المسجونون هدّؤوه. وعلاوة

علـى كل ذلك، تعلّم بعض الحروف. أحسّ أن حلمه يكاد يتحقّق، لكنه سُـرعان ما أُخرجَ من السجن، فلم يستطع تعلم المزيد! ودّ لو يسمحوا لـه بالمكوث أسـابيع أخرى ليتعلم مزيداً من الحـروف، إلا أنه خاف أن يصبح بطلبه ذاك ماكثاً في السـجن المؤبد. لعن الشـيطان، (وهل للشيطان ذنبٌ في دفعه إلى التعلم؟)، وراح يبحث عن خبز جديد.

ولقد ينسى المرء كل شيء، إلا أحلامه. لأنها ليست مجرد أحلام، بل أعضاء رئيسـة للعيش كما اليديـن والرجلين، وأبعد من ذلك، كما القلب!

لـم يفلـت محمد، هو الآخر، مـن نتيجة هذه المعادلـة. وهو الذي يتغنى:

أحلم،

أحلم حتى ينوب الحلم

عن الحلم

فأرى ما أحلم.

المحبة كائنة،

لكن الحوار شخصي.

لقد كان في أمسّ الحاجة إلى تحقيق أحلامه كي يمثل الجزء الثاني من حياته: وصف التجربة.

سافر محمد إلى العرائش طلباً للبقية الباقية من الحروف التي فاتته في السجن. لم يُقبل، بدءاً، بسبب طوله الفارع مقارنة بأصدقائه التلاميذ، الذين كانوا يبدون أمامه أشبه بالأقزام... فكّر محمد: لقد فاتني القطار! وهنا، بالضبط، فكّر في حل لإيقاف القطار. أغمض عينيه. سافر. أمسك السوبرمان بتلابيب القطار. أعاده إلى محطة الانطلاق. ولما رَكِبَ محمد، فتّح عينيه، وكلّه أمل. وأصرّ على المدير أن يسمح له بالدراسة مهما كان المقابل. امتُحن، فإذا به لم يُهَنْ. بل أهانَ، بنجاحه، مشاعر الحياة!

محمد يدرس.

محمد يجتهد.

محمد يقرأ.

محمد يبني.

...

محمد يسقط. لكنه يقفُ مرةً أخرى خارجاً من مستشفى الأمراض العصبية، بعدما فشل الناس في إحضار رجال المطافئ لإطفاء النار التي أحالت كل ورده إلى رماد! غيرَ أنه، ولحسن الحظّ، كان يدرس الأدب ويقرأ عن الأساطير. مدّ الفينيق لمحمد يده، في الوقت الذي لم تتكبّد الحياة عناء النظر إليه...

(3)

– برافو! أحسنت. أعجبني حكيُك. غيرَ أنني لم أعِ سبب انتهائك منه على وجه السرعة؟ قال السارِدُ باشّاً في البدء، مستغرباً في النهاية.

– لم أجد ما أحكيه غير ما سمعت، خفتُ أن أُمطّط فأتمَطّط!.. وعلى العكس منه، فقد استغربتُ في البداية وبششتُ في النهاية.

– الحق أنك لم تدَع لي ما أزيدُ فوقَ ما قُلتَ. سأكون ناشزاً إن فعلتُ ذلك.

– أعتذر جداً. قلتُ متأسّفاً، مخفضاً رأسي، وأضفتُ: أيمكننا تدارُك الموقف؟

نظر إليّ بحنوّ مهدئاً إيّاي:

– لا تقلق أبداً، سأحلّ المشكلة. أعتقدُ أنني لن أبيتَ الليلةَ هُنا. وربما أكثر من ليلة. سأسافِرُ بحثاً عن الحل، وفورَما أجِدُه أعود على وجه السرعة. اعتبر المكان مكانَك. حاول أن تلهي نفسك فيما لا يضجرك.

أعد السارد أوراقاً، وحملَ في يده ثلاثة كتبٍ، قال لي إنّها سيَرٌ. أبديتُ تفهّمي، ونظر إليّ قبل أن يصفق الباب، وقال:

– أنتَ لا تحتاجُ إلى معلّم. إلى اللقاء!

لم أصدّق نفسي. هل أنا حقاً لا أحتاجُ إلى معلم؟ وإن كان الأمرُ كذلك، فلمَ لم أُطل في حكيي؟ يا إلهي، لو لم أجهد نفسي في سرد أحداث إضافية، لسردتُ له قصة قصيرة جداً، حينئذ سيضحك على تفاهتي ملء فيهِ.

* * *

القراءةُ قاتلةُ الوحدة، فكرتُ.

«في قبوي»، ذلك كان أقرب عنوان إلى حالتي منه إلى أي عنوان آخر، يُلحّ دوستويفسكي على أنه كتب (هذا الكتاب أو هذه الرواية) مُتعجّلاً؛ سرود سببتْ لي صداعاً في رأسي بفعل عمقها الشديد. ماذا لو كتبها بتأنّ؟ للقارئ حرية التخيل.

وضعتُ قبو دوستويفسكي جانباً. وعنّت لي قصة، (يا إلهي كيف استطعتُ قولَ هذا!؟).

قصة تخصّني جداً، ولا يمكن أن أسرّ بها لأيّ كان. لكن، ولأنكم قرائي، تكبدتم عناء الوصول إلى هذه المحطة، صبرتُم على كل التفاهات المكتوبة هنا، (ويا ليتها لم تُكتب!)، سأُسرّ لكم بها. لكن، مع ذلك، أرجوكم لا تُخبروا أحداً بها، حتى وإن كان السّارد نفسه.

في يوم من أيام أغسطس، وقبل أن يجرني ولهي (خبلي) إلى هذا القبو (وإن أحببته)، سألتُ، وعلى غير عادتي، طفلاً صغيراً: هل تستطيع أن تنزِعَ عقلك عن مكانه؟.. كنتُ أنتظرُ اندهاش الطفل بترّهتي، لكنه سارع إلى وضع يديه على عينيه، حالّاً، بفعله ذاك، أعقد معادلة في حياتي!

قد لا تفهمون الحدثَ بدءاً، لكن جربوا: هل يمكنكم أن تعيشوا دون عينين؟ وليس المغزى في العينين، بل في ارتباطهما بكل ما هو حسي، مادي، ملموس. قد فهمتُ من الطفل، إن كنتم فهمتم الآن أيضاً ذلك، أنه لا يمكننا التعقّل من دون تجربة حسية. أعني أنه لا يمكننا أن نصبح واعين إن لم نمسك، قبلُ، بتلابيب التجربة. ولشخص، مثلي، يودّ كتابة الرواية، قد يُفيدُ من هذه الواقعة. أَوَليست الرواية سوى تراكم للتجارب؟

هكذا صرتُ أقرأُ كتابَ حياتي، فطفقتُ أبحثُ عن التجارب في كل مكان. حتى إني في يوم من الأيام، أيها السادة، (وصدّقوني، ولو كنتُ كاذباً)، رأيتُ، (فيما يرى النائم)، أني في صحراء قاحلة، لا ماء ولا ثغاء ولا رغاء، كنتُ على وشك أن أقضي نحبي. رفعتُ يدي إلى السماء طلباً للرحمة.

كانت الرحمة عبارة عن رغبة في النوم، لعل

ذلك يُنسي عصافير بطني، وثعابين حلقي قليلاً. نمتُ. ورأيتُ في منامي أني استيقظتُ على صحراء شاسعة لا يحدها حدّ. إذ لا يظهر في الأفق سوى مفترق الصفرة والزرقة. كان ذلك بديعاً. في منامي لم أكن جائعاً، كنتُ شبعانَ حدّ التخمة، لم أدرِ مصدر ذلك. أوقفتُ الأسئلةَ وشكرتُ رازق النعم.

جلستُ على الرمال ألهو بها، راسماً مسارات لولبية عليها، حتى نسيتُ نفسي. وعلى نحو غير متوقّع، انبثق من الرمال عقربٌ أسود. خفتُ أن ينقضّ على يدي. اندفعتُ إلى الوراء. وما كانت إلا لحظات حتى انبثقت حية خلف العقرب، فبلعته، على خطورته، في قضمة واحدة. لكن لم يكن خوفي من الحية بأقل من العقرب. كان هلعي منها أشدّ. خشيتُ ما قد يتمخض عنها من عواقب، فبقيت ساكناً مستسلماً لما سيحدُث.

اقتربتِ الحيةُ مني، وشكلت دائرة لولبية، رافعةً رأسها نحوي، فقالتْ:

– ما الذي جاء بك إلى هنا؟

لم أنبهر من كونها تتحدّث بالقدر الذي خفتُ من سمومها. كنتُ أعلمُ أنني في حلم، (ففي الحلم وبالحلم

يتحقق كل شيء). أجبتها بارتعاد:

– لا أدري، (يا سيدتي)، كيف أتيتُ إلى هنا.

– أتعلم أنني لا أحب البشر؟

– لماذا لا تحبيننا، نحن لا نؤذي أحداً.

سخرتْ مني حين لفظتُ عبارتي الأخيرة، ثم قالت بصوت فحيحي بارز:

– مساكين! أنتم لا تؤذون أحداً؟ يا لشدة لطافتكم وبراءتكم!

كفاك من هذه الهرطقات، وتذكّر أنكم أقسى الكائنات الموجودة على وجه الأرض. سمّكم يفوق سمّنا بمليارات الدرجات. أنتم لا تحبون الاختلاف، لدرجة أنكم تمقتون كل إنسان مختلف، ومتميز عنكم، فما بالك بالكائنات التي لا تنتمي إلى جنس الإنسان!

انبهرتُ لإصرارها الكبير، حتى إنني اقتنعت بكل ما قالتْهُ. حضرتني نماذج كثيرة من الأعلام التي اختلفت عن السواد الأعظم من الناس، فاحتُقِرَتْ وهُمِّشَتْ، مما عزز اقتناعي بقولتها.

وما إن سارعتُ إلى إبداء إعجابي بما قالتْ، حتى انصرفت زاحفة في الرمال.

يا لها من حادثة! حيوان يعلمنا درساً في الحياة! وأيّ حيوان، حيوان ساتم!! لم أشأ أن أستمر في التعرض للتوبيخ من أفواه الحيوانات، لذلك قررتُ ان أستيقظَ من حُلُمي.

لما استيقظتُ، وجدتُ نفسي ما أزال ظمآنَ جوعانَ. طلبتُ الرحمة مرة أخرى، إلا انّ هذا الطلب، هذه المرة، كان بشروط. اشترطتُ أن أخرُجَ من متاهة هذه الصحراء، لأجد متنفساً لي في أراضي الاخضرار. فكانت رحمةً استثنائيةً: مرّت من جانبي قافلة، وصرتُ أركضُ إليها كالفاقد عقله. استجاب لي حاديها، رحّبَ بي. ارتويتُ وشبعتُ من خيراتهم، وامتطيتُ أجود جمل عندهم. ولما تجاذبنا أطراف الحديث، اشتمّوا في أصلي شيئاً من الاختلاف عنهم. دفعني أحدهم من على الجملِ، فوقعتُ. ولحسن حظي أن الرمال لا تهشّم العظامَ. أسمعوني ما لم أسمعه في حياتي كلّها. مللتُ جوّ العنصرية ذاك، لم أجد راحتي في حلمِيْن. فقررتُ، أخيراً، الاستيقاظ مرة أخرى.

لمّا استيقظتُ، أدركتُ أن الحلم أيضاً تجربة. تذكرتُ ما قاله ابن حزم في طوقه، عن الذي أحبّ في منامه، وصار مولعاً بفتاة، أبداً لم يرها خارج الحلم.

ولكـن إذا قلتُ إن الحلم قدْ اسـتأثرَ بكل التجربة، فلكم أن تعتبروا أنه ليس في البسيطة أغبى مني.

هـذه، يا قرائي الجميلين، قصتي الخاصـة بي. وأعود فأقول لكم: أنا لم أخبركم بها عبثاً، بل إني فعلتُ ذلك لأنكم لستُم عنصُريين، لستُم أعـداء الحيات والأفاعي. أنتـم رائعون! وأكيدٌ أنكم سـتحتفظون بها لأنفسكم.

أحياناً، حتى وإن لم نقوَ على تنميق الحكي، وأنا ممن أتحدث عنهم، قد نتمكن من أن نبعثَ رسـائل بيننا. ولكن ليس عن طريق الفيسبوك، أو الوتسـاب، أو ما شـئتم من الوسائل الحديثة، بل عن طريق انسجام أرواحنا، والكثير من الحب: الحب المفضي إلى تعالينا جميعاً.

أنا لا أحبُّ أن أمثّل دور الحكيم، فحتى ولو حاولتُ ذلك، يقيناً، فلن أستطيع. لأن الحكمة سرٌّ لا يمكنه أن يتبلور حين يعرفه شخص واحد فقط، بل بمعرفتنا له جميعاً، يصبحُ لامعاً، برّاقاً... فاشياً.

فصدّقوني أو لا تصدقوني فذلك سـيان، إذ ليس الهذيان غير ذلك الجسر الذي يصل الحقيقة بالكذب...

(4)

فـي الصباح، (صرتُ، كالسـارد تماماً، أعلم، بدقـة، زمن توالج الليل والنهار، في المكان، رغم أنفي) أسندتُ ظهري إلى الحائط، ألفظ أنفاسي الصباحية. لم أتذكر متى نمتُ البارحةَ. تركتُ الشمعدان منيراً. لم يبق في الشـمعة سوى سنتمتر واحد. سـارعتُ إلى تبديلها بأخرى جديدة. كالعادة، توجهتُ إلى المطبخ، ارتشـفتُ فنجان قهوتي، وأكلتُ بضـع تمرات. عدتُ إلى مكاني حائراً فيما سـأفعله. وضعتُ رأسـي بيـن يديّ. أغمضـتُ عيني الغائرتين. وبعد لحظات، رفعتُ رأسـي، وركزتُ عينيّ في الشمعدان. فكرتُ: لماذا لا يضحي الشمعدان مثلما تُضحّي الشمعة؟ ألأنه ذكر وهي أنثى؟ أم لأن مهنته كحمّال للشمعات، ترغمهُ على العيش إلى الأبد؟ لا بدّ من سرّ وراء ذلك!

من هذه البذرة، وُلدتْ قصة! فتعالوا اقرؤوا خرافاتي الصباحية!

أن تكتُـب، يعني أن تضحي مـن أجل قارئ يقرأ لك، يعني أن تموت. وتفسـح له المجال ليحيا هو من جديد. هذا ما يجعل كل كاتب أشـبه ما يكون بشـمعة. لذلك، وأنا أقصّ عليكم هذه القصة، أبدو كالشمعة التي

أنظـر إليها الآن. وأنا، أيضـاً، حينما لا أكتب وأنظر إلى الشـمعة أبـدو، إذاً، قارئاً! أوَتحتاجُ الشـمعةُ إلى قارئ؟ أكيد، إذ كيفَ لها أن تثبت وجودها دون طرف تضحي من أجله! وأين مصير الشمعدان من هذا كلّه؟ أتـرون كم هو غائب رغم وجوده؟ مما يسـمح لنا أن نقول: إن الشمعة هي البطلة هنا، ولا أحد غيرها...

هذه ديباجة، أما القادم، فهو أيضاً ديباجة! نحن لن ننتهي أبداً من أمر ما أيها السـادة، نحن الذين ننتهي، ننتهـي في فصل الخريف. خريـف العمر. حقّاً لا أودّ أن أحزنكم بما أكتبه هنا، ولكن المسـألة على حقيقتها لا يمكن أن تُقبر بسهولة.

هذه قصة كاتب:

قصة كاتب لم يكن يدري أنه سـوف يصبحُ كاتباً؛ إذ إن الإنسـان لا يؤمـن بالعبـارة التـي تقـال عنه: الإنسـان ما يصير إليه. بل يؤمن، فقط، بأن الإنسـان ما هو عليه اللحظة. لكن ما قد يشـفع له سـذاجته تلك أنه سـيؤمن، في خريف عمره، بهذه العبارة. وحدها التجربة ترغمه على ذلك.

فـلان، عاش تجـارب مؤلمـة، قهرتـه المتاعبُ والمصائب، لكنه تغلب عليها. كانت له همة جلجامش

حينما دخل غابة خمبابا. لكن الفرق بين الاثنين، هو أن الثاني خرج من الغابة دون عودة، أما الأول، صحيح أنه خرج من الغابة، لكنه دخل إلى غابة من نوع آخر، وإني لأظنها أقسى: غابة الحياة الجوانية.

انتهى فلان إلى الكتابة، وبما أنه لم يعش إلا في الغابة، لم يجد إلا أن يصفها بالضرورة. والطريف في الأمر أنه لم يكن يصف الأسودَ والنمور والفيلة، بل كان يلقي كل أنواره على الحيوانات المُفتَرَسة، «المظلومة» في القانون الغابوي الذي لا يني يؤكد: للقوي الحق، كل الحق، أن يفترس الضعيف. كان يجد حريته وشفافيته، بل وموهبته، في وصف الغزلان وسرد كل الأحداث التي تسبق وتلي افتراسها، فيصور الكاتب، بكل مهارة، مشاهد فظيعة لغزلان تفرّ من أنياب الأسود التي لا ترحم. تفرّ الغزالة بكلّ استطاعتها حتى تصبح منهكة القوى بسبب عدوِ العدوّ الأسدي المتزايدِ خلفَها. تستسلم الغزالة فتنطرحُ أرضاً فاقدةً كل أملٍ في الحياة.

وهكذا قضى معظم كتابته في السرد الغابوي، فكان كلّما نُظرَ إليه نظرات شزراء تستقبح ما يكتُب وتستفسره، في استنكار، عما دفعه إلى الوقوف إلى جانب المفتَرسين، ردّ بكل اعتراف:

– إذا عشتم حياة القصور والرفاء، فإني لم أعش إلا بين هؤلاء، أتودّون أن أكذب، فأتحدّث عن حيواتكم التي لم أعرفها؟

فيرتدون إلى أنفسهم خاسئين.

إلا أنه كلما كبُر واعتلى عرشَ رأسه الشيبُ، يخفض فلان من حدّة الأوصاف والسّرود، مخففاً بذلك وطأة المُفترِسين عليه.

ولكي أنهي هذه القصة بسرعة أقول: لم يدرِ المعترضون على كتابة فلان استحقاقيةً ما سرده إلا بعد أن انتهى فصل الخريف من حياته. اكتشفوا أنه ما كان سوى مبعوث صحافي إلى العالم السفلي ليخبرهم بما يحدث هنالك. ولما وضعوا أيديهم في جيوبهم ليؤجروه على مجهوداته العظيمة...

وجدوه مرتدياً فراش الأرض وقد رحل...

هذه هي القصّةُ التي عنّتْ لي، فلا تصدّقوها هي الأخرى، لا تصدقوا سوى صوت الإنسان الذي يطنّ في صدوركم كنحلة تحنّ إلى عسلها...

أتكون لهذه القصة قيمة إن لم تقرؤوها؟ لكن لمَ أسألكم هذا السؤال

وقـد قرأتموها؟! علـى أيّ فقد قصصتُها، ولا فائـدة من التحدث عن الاسـتنتاجات والتفاهـات التـي قـد تستشـفونها من وراء السـطور. لكنكـم، رغـم ذلك، قد تنتهـون إلى اتهامي بأني كاتـب (إن كنت حقاً كاتبـاً) لا يملك القـدرة على تعرية الوقائع وسـردها كما هي. إن هذا الاتهام يسـعدني كثيراً! أتعلمون لماذا؟ لا بدّ أنكم تعلمون لماذا. لكني سـأكتب السـبب وراء ذلك هنا. وبخاصة، إذا أوّلتم أني فهمت شـيئاً آخـر. إن الذي يجعلني أسـعد لاتهامكم الجميل هـذا، المعترف رغم تعجرفه الظاهر، هو أنكم لسـتُم كالأسود الذين لا يحبون بطل القصة فـلان، هم لا يودون للواقع تعرية، يريدونه منمقاً مُجَمَّلاً... مقنّعاً، أما أنتـم، أيها الجميلـون، فلا. وحدكم تسـتحقون أن أخوض في كل هذه «المغامرات» طلباً للحكي.

هـل مللتم كتاباتـي القصصية أم لـمّا زلتم؟ إذا لـم تكونوا قد مللتُم بعد، وأنا أعرف أنكم قد ضجرتم، سوف أنتقل إلى حكي جديد.

سأسـتعير عبارة التلفزيـون المبتذلة، (عسـاني أرفع عنها بعض الابتذال، هنا، إذ رحّلتُها) وأقول لكم: انتظرونا في الحلقة القادمة!!

(5)

كي لا أضع نفسي في وضع مقرف أمامكم، ارتأيتُ أن أستضيف، في مكاني هذا، أديبكم الأشـــهر إرنست همنغواي. لم أستضفه بالمعنى الخالـــص لكلمـــة اســـتضافة؛ إذ إنها كلمـــة توجب علـــيّ أن أكون أنا الســـارد، في الوقت الذي يكون هو مســـتمعاً؛ أي أن أكون أنا الشقي، وهو المســـتمتع بشـــقائي. وأنا لا أحب أن أشـــقى إلا من أجلكم: قرائي الأعزاء؛ أما صاحب النّوبل هذا، فلن أشـــقى من أجله. هل أخذ النّوبل من أجل أن أحكي له أنا؟ هذا ما لن يكون له أبداً.

دعونا نُحضرهُ إذاً،

ثلاثة...

اثنان...

واحد...

ما إن أغمضتُ عيني، حتى تجلى همنغواي بقبعته البيضاء المائلة على رأســـه، كمن لا يحســـن ارتداء القبعات. غليونـــه في فمه. دخان

ينبعث منه دفعات، كأنها سحابات صغيرة عابرة. لحية بيضاء كثّة. نظرة واثقة من نفسها حدّ العمى.

– أهلاً. قالها بلامبالاة واضحة.

– أهلاً. أجبتُ بغير اهتمام أيضاً، انتقمتُ كي أشفي الغليل، لا أحب أن أبدو قزماً أمام العمالقة. إذاً فلأَتَعَمْلَقْ أنا أيضاً.

– هل لي أن أعرفَ ماذا أفعلُ هنا في هذا القبو؟.. يقول عبارته وهو يتفحّص الظلامَ بعينيه المحدّقتين في السقف والجدران. أقرحتني كلمة «قبو». بدوْتُ، عند طرقها سمعي، أمامه، كأني أقزَمُ من في الكون على الإطلاق. فسارعتُ إلى الرد:

– هذا ليس قبواً، أيها السيد، هذا منزل. منزل لكنه صغير، يمكنك أن ترى من جانبك، وتتأكد من أن المكان يحوي مطبخاً ومرحاضاً.

لم يردّ. جلسَ على الكرسي، دخّن شَرِهاً. ثم عاد، بعد لحظات، وسألني:

– لماذا تعلي من شأن الهامش على حساب المركزي؟.. قال بنبرة هادئة، ثم أضاف بنبرات ترتفع تصويتاتها أكثر فأكثر: لم أقصد من السؤال إهانتك يا ذكي، فقط أستخبرك عما أفعله هنا الآن؟ من أتى بي إلى هنا؟.

– هدئ من روعك، أنا لم آت بك إرادةً مني، بل نزولاً عند رغبة القراء. ولكي أكون صريحاً، أظنّهم كلّوا من حكيي وملّوا منه، لذلك

ارتأيتُ أن أقدّم لهم حكياً جديداً، فهلّا حللت لنا هذه المشكلة؟.. قلتُ كمن يقفُ أمام قاضٍ في محكمة لا استئناف بعدها.

بدا لي أنه قد تفهّم الوضع: ملامحه تغيرتْ. أساريرُهُ انشرحتْ. فكرتُ: أمن أجل القارئ تنافقون؟ كم أنتم انتهازيون أيها الـ«أنتم»!

فعقّب على اعترافي بصوت مراوغ، قائلاً:

– لا ضير في ذلك، سأحكي لهم قصة قذرة لذيذة. وأكيد أني لن أحكيها لسواد أعينهم، بل من أجل كسب أكبر قاعدة من القراء فقط، لكي أستطيع نيل بعض الجوائز التي أطمح إليها.

أرأيتُم؟ لا أحد يحكي مجاناً هنا سواي!

وضع قبعته جانباً، سامحاً لغليونه بالدخول، من حين إلى حين، إلى ثغره، واضعاً رجلاً على رجل، مركزاً عينيه في خزانة الكتب (تتبّعتُ عينيه، فوجدتهما ملقاتين على قصته الطويلة، أو روايته القصيرة الشيخ والبحر)، فأضاف بثقة:

– فلنبدأ!

في المكان الذي لن أسمّيه، وعندما كان الوقتُ ليلاً، انطلقتْ سيارة سوداء رباعية الدفع بسرعة مهولة جداً. لا يُرى ما بداخلها، الزجاج أسود بالكامل. الطريق خالية تماماً إلا من نباح الكلاب وعواء الذئاب. القمرُ الشاحب يراقب من عليائه

ضَجِراً، كحارس بنك لم يعد يُعوّلُ عليه. بعد ساعات من السرعة الصاروخية، توقّفت السيارةُ عند سفح جبل ضخم. سكنت دون حراك، ودون أن تفتح أي باب، مما يشي بأنها تنتظر قادماً.

وقبيل الفجر بقليل، هبطت طائرة هليكوبتر غير بعيدة عن السيارة. نزلَ الربانُ والقبّعةُ تهربُ من فوق رأسِه جرّاء رياح المروحةِ القوي. قصد السيارة السوداء. تهامسوا كلمات شفراتية فيما بينهم. وبعد هنيهة قصيرة، انفتَحَ البابُ الخلفي للسيارة. أخرجوا ثلاثة رجال معصّبي الأعين، مشدودة أيديهم، بحبال متينة، إلى الخلف. اقتيدوا إلى الطائرة. بالقوة أُدخِلوا. أغلق الربّانُ البابَ. بإشارة من نافذتي الهليكوبتر والسيارة، تبادَل المجهولون تحياتهم. وبعد ذلك، عرّجَت الطائرة إلى أعلى الجبل.

هنا يقف همنغواي يشعل غليونه مرة أخرى، فإذا به يسعل بقوة، حتى كاد يختنق جراء الدخان الذي شج صدره من الداخل، طلب مني أن أمدّه بشربة ماء، فكنتُ سخياً، لم أتركهُ يموت لسبب واحد: تتمة القصة.

لا، لا، لقد نسيت، من أجل سببين مددتُه بالماء، من أجلكم، أيها القراء الجميلين أولاً، ثم بعدها من أجلي لا تقلقوا مني أرجوكم!

ردّ عافيته وشكرني، وأضاف بصوت خفيض جداً، مختنق شيئاً ما جراء ما حدث:

– هذا الغليون الملعون سوف يقتلني يوماً ما.

– لا، لا تقل ذلك. فنحن لا زلنا محتاجين إلى قصصك... أقصد لا زلنا محتاجين إلى وجودك بيننا. قلتُ متلعثماً، موارياً نواياي الخبيئة؛ إذ إن ثعلباً ماكراً كهمنغواي سريع الانتباه إلى أبسط الأشياء، لا تنطلي عليه مثل هذه التوريات.

– حسناً، فلنعد إلى حيثُ كنا... أين كنا؟

– في الجبل، في الجبل.

– آه، نعم،

وصلتِ الطائرةُ إلى الجبل. أُخرج المختطفون، وهم لمّا يزالوا مقيّدين مُعصبين. فُتح، أعلى الجبل، بابُ سورٍ ضخم، خرجَ منه حراس آخرون. أخذوهم وأدخلوهم من الباب نفسه. وبعد ربع ساعة مشياً على الأقدام، يصل الحراس إلى سورٍ أضخم من الأولِ، ظهر حراسٌ آخرون استلموا المختطفين الثلاثة، وساروا بهم قرابة نصف ساعة إلى سور ثالث أضخم من السورين الأوليْن. استلمَ حرّاسُه، مرة أخرى، المقيّدين الثلاثة، وأدخلوهم إلى ساحة كبيرة، مشوا ساعة كاملة لكي يصلوا إلى القصر.

باب القصر الكبيرِ كبيرٌ جداً، مكتوب فوقه بخطّ عريض «نحن قوم لا نقرب الفاحشة». ساعد في فتح

الباب نحو خمسين حارساً دفعاً من الخارج وجراً من الداخـل. عبَرَ الثلاثـةُ البابَ بصحبة حراس تسـعة. تحلّق كلّ ثلاثة منهم حـول مُخْتَطَفٍ واحد. انبثق من الظلام رجلٌ ضخمٌ، وقال بصوت غليظ:

– لماذا لم يظهر هؤلاء حتى الآن؟

أجاب أحد الحراس بآلية:

– لا ندري سـيّدي، مهمتنا تقتضي منا الاسـتلام فقط.

– منذ متى أصبحت قائداً هنا، لكي تُريني مهمتك، أو مهمة الآخرين؟.. بغضب خانق، أفرغ مسدّسه في رأس الحارس، واقترب منه ليتأكّد من موته فأضاف: مات؟ (إنا لله وإنا إليه راجعون).. هزّ كتفيه بلامبالاة. وأمر الحـراس أن ينتظروه لحظات قبل أن يسـتيقظ الحاكم.

لم يفهم المُقتـادون الثلاثة ماذا حصل بالضبط في موضعهم ذاك. أحسّوا أنهم في مسرحية. مسرحية هم فيها عميان، يسمعون، ولا يرون.

بعد خمس ساعات من الانتظار، وبعد أن وصلت الشـمسُ إلـى كبد السّـماء، نادى الرجـل الضخم في

الحراس أن أدخِلوا المعتوهين الثلاثة. فسارعوا إلى فعل ذلك. وقفوا أمام الحاكم كما كانوا على حالتهم منذ أن اختُطِفوا. أمر الحاكم أن يُكشف عنهم غطاؤهم، ليكون بصرهم آنذاك حديداً. فقال:

مازال هذا الهمنغواي يسعُل، أَوَيمثّلُ علينا هذه الأدوار لكي نؤجره بأموال لا نملكُها؟ يا إلهي ألا بد له من أن ينغّص علينا تركيزنا مع القصة؟!

مُدّعياً اهتماماً بالغاً، سألته:

– ما بك؟ أأستطيعُ أن أُساعِدَكَ في شيء؟

– جفّ حلقي، أود نبيذاً. أجاب بصوت مبحوح. الآن فقط كان يسردُ بصوت سليم، فماذا حدث إذاً؟ فسارعتُ إلى إخبارِه أن النبيذَ غير موجود، وحتى إن كان موجوداً، فلن يوجد. أعددتُ له فنجان قهوة طالباً منه أن يصبر معنا، إلى أن ينتهي من القصة. أبدى تفهّمه المتصنّع، وقبل أن يستفزني بعبارته: «أين كنا؟» قلتُ:

– وماذا قال الحاكم؟

بعين شزراء رمقني. كأنه اطلع على نواياي. فتابع:

– ما الذي جاء بكم إلى هنا؟

نظر الثلاثة بعضهم إلى بعض، مندهشين من

سؤال الحاكم، مفكرين: إذا لم يعرف هو سبب مجيئنا إلى هنا، فمن، يا ترى، سيعرف؟

– أنت أيها الطويل، من أنت، وما الذي جاء بك إلى هنا؟

(الرجلُ المسؤول ذو قامةٍ فارعةٍ، ضامر جداً، لحيتُه كثة حمراء، غائر العينين أزرقهما، أنفُه الأفطسُ أبرزُ ما في وجهه). أجاب:

– أنا شاعر في زمن لا غاويَ فيه، من قبيلة اليأس، أبي سيد القبيلة، واسمُه «يانس»، كنتُ أُعارضه دائماً، حتى في أبسط الأمور، إلى أن انتهى إلى طردي من المنزل، بل من القبيلة بأكملها. كنتُ أتغنى بالأمل، مستقياً منه قصائدي وأشعاري التي لم تكن ماجنة، كان الناس، في قبيلة المجون التي ارتحلتُ إليها، يتحلّقون حولي مستمتعين بما أقول إلى حدّ بعيد. كنتُ سعيداً جداً رغم اغترابي. لكن لما انقضى أملي، بسبب من وطأة الاغتراب، صرتُ أستقي منه (يقصد الاغتراب)، بدلاً عن الأمل، كل قصائدي. فكان الناس عندما يستمعون إلى أشعاري يبكون ويبكون ويبكون، فصرتُ بينهم عنواناً للأحزان والهموم، وبما أن الإنسان لا يحب إلا أن يسعدَ، هجروني، وصرتُ وحدي.

فكـرتُ في طريقةٍ أعيد بهـا هؤلاء المعجبين، فلم أجد غير التغني بالأمل سبيلاً لذلك، لكن، وعلى الرغم مـن ذلـك، بقيتُ وحـدي. حتى ذهبت أيـام، وجاءت أخرى، فقلت في نفسـي: بمـا أن القبيلة قبيلة مجون، فلِمَ لا أنظم أشعاراً ماجنة؟ إذ إنني لا أستطيع أن أبقى فـي هذه العزلة وهذا الاغتـراب طول الوقت؛ لأنهما سينتهيان بي إلى الموت شِعراً.

وهكذا بـدأتُ أقرض القصائـد الماجنة والخليعة، فاستردتُ جمهوراً أكبر من جمهوري السابق، صرتُ معظماً بينهم ومبجّلاً، يتناوبون على اسـتضافتي في بيوتهم، وإقامة حفـلات ماجنة من أجلي، فبقيتُ على هذه الحال أعواماً عديدة وأزماناً مديدة.

وفي يوم مـن الأيام، تحت ظلال شـجرة وارفة، موجـودة على تخوم قبيلة الرقابة، تجمع حولي سـيل عارم من الناس الذين يودون سـماع أشعاري الجديدة فـي المجـون. أطربتهم حتـى تمايلت رؤوسـهم من الطرب. وصاح فينا رجل قوي البنية والشكيمة، بارز الصوت غليظـهُ: – يا ليل يا عين، زدنا مما عندك يا شاعر!

وفـي هـذه الآونة، سـمع طفلٌ كان يلعـبُ بدميته

الممزقة على حدود قبيلة المجون التي صارت قبيلتي. ركّز عينيه في مجمعنا الماجن. استنكر، رغم طفولته، المنظر الخليع ذاك، أسرع إلى أبيه، ولسوء حظي، كان سيد قبيلتهم. فأخبره بالواقع، اغتاظ بشدّة، أرغى وأزبد، ثم هدّد وتوعّد، إلى أن جاءني اليقين. إذ لم أدرِ كيف وصلتُ إلى هنا منذ تلك الليلة البائسة التي تم اختطافي فيها وأنا غارق في نومي.

هذه، يا حاكمنا، واقعتي الواقعة.

– كل هذه الأمور وقعتْ، وأنا لا أعرف؟ ستصمتُ الآن، وليتحدّث المتوسط بينكم، ويحكي عن نفسه وعن جريمته.

(المخاطَبُ الثاني رجل متوسط القامة، هزيل كصاحبه، يبدو أنه يقصّ اللحية، ويعفو عن الشارب، مجعّد الشعر، عيناه كعيني الصقر). ومرتجفاً وقف أمام الحاكم، فقال:

– أنا روائي، باحثٌ، في نفسه، عن الزمن الضائع، يطلقون عليّ في ساحة الأدب «بروست الخليع»، مبررين تسميتهم تلك بأني أشبه بروست في كونه روائياً، وخليع لأنني، ببساطة، أكتب أدباً يبدو لهم خليعاً. حاولتُ مراراً أن أُفسّرَ لهم أني لا أهدف

بالخلاعة الأدبية تلك إلى أن أفسد قرائحهم وسجاياهم «الطيبـة»، بل فقـط لأن واقعنا كان خليعـاً، فطفقت أروي روايات عنه بكل صدق.

المشكلة الكبرى أنهم يقولون ذلك وفي نفس الوقت يقتنون كتبي، لكنهم يقتنونها بطريقة عجيبة. رُوِيَ لي أنّ أحدهم، ذات مرة، ذهب إلى مكتبة حيّهم فسأل عن كتابي برموز لـم يفهمها من كان حاضراً، باسـتثناء الكُتبي، الذي كان متعوداً على سـماع تلك الشفرات. فحـرص المشـتري على وضـع الكتـاب في غلاف أسـود، لكيلا يراه الناس حاملاً إيـاهُ إلى المنزل. ويا للغرابة!

أنت تسـألني، يا حاكمنا المبجل، أي ذنب اقترفتُه لكـي أصل إلى هنا. الحق أنك تعرف الآن لماذا، لكن دعنـي أقول لك شـيئاً. لقـد ألِفَ النـاس التحدُّثَ عن الأمور المحرمة والحساسة، في مجتمعنا، على شكل رموز، لكن كل الذين يتحدثون بتلك الكلمات الشفراتية يعرفـون معناها ويعون جيداً دلالاتهـا، مما يدعوني إلى التسـاؤل أنحنُ ظاهريون حتى في الخجل؟ وبهذا يبـدو أن الفرق بيني وبيـن الناسِ ظاهـريٌّ أيضاً لا غير. فهم يتواصلون حول هذه الأمور بطرق رمزية، أما أنا فأحاول أن أكون أميناً فأقدّم هذه الأمور بالذات

كما هي، شفافة، لامعة، برّاقةً حدّ القرف.

أما بالنسبة إلى اختطافي، فأعترفُ أني لم أكن غارقاً في النوم كصاحبي الطويل، بل كنتُ في قمة الصحو.

فعندما كُنتُ قد أنهيتُ كتابي الأول، ومنخرطاً في كتابة آخر، قررتُ أن أخرج من غرفتي التي تُشعِرني أني سابحٌ في السماء، (أي في العالم العلوي)، متوجهاً نحو المقابر التي تستهويني كثيراً، والتي تشعرني أني غارق في الأرض، (في العالم السفلي). استلقيتُ بجانب قبر أحدهم يُدعى «صريحُ بنُ بائس» على العشب الرطب، وعلى بطني اتكأتُ بهيئة تُساعدُني على الكتابة بارتياح. عادت بي ذاكرتي إلى أحداث ضاربة في القِدم، فأخذتُ هذه الأحداث فضربتُها في حياتي البائسة لا في القِدم!

وما كانتْ لحظات حتى سمعتُ خطواً بطيئاً ورائي. لم ألتفتْ لأنني توهّمتُ أن انخراطي في أحداث عملي الجديد، جعلني أسمع حتى خطو الناس في خيالي.

لكن، بعد لحظات أخرى، أحسستُ بركلةٍ أسفل ظهري تهزّ عمودي الفقري، فكانت على وشك أن

تُخرجه من مكانه. هنا علمتُ أن المسألة لا تتعلقُ بأحداث الرواية، بل بأشخاصٍ ملثّمينَ، ضخام الهيئة، يصرخون في وجهي، آمرينَني أن أرمي القلم والورقة جانباً، وإلا فلن تُعجبني الحالُ، فكان أن أطعتُهم مسلّماً نفسي لهم، محترزاً من فضائح أخرى قد تحدُثُ لي. ولشدة بشاعة الطريقة التي حملوني بها، ظننتُ نفسي هرّاً.

وهكذا، اختُطفتُ هرّاً، ولا زلتُ، يا حاكمنا المعظم، أمامكم هرّاً.

– أظنك تبالغُ قليلاً أيها المتوسّطُ الملعون؟ انتظر، كصاحبك، ما سيُبتُّ في حكمك، بعد أن نرى ما في جعبة هذا القزم الثالث. توجه بعينيه إلى ثالثهم، فأضاف: السؤال نفسُهُ موجّه إليك. اعترف!

(ثالِثُهم قصير القامة، أهزل من الاثنين معاً، أعجف الخدين، مدوّرُ الوجه، أسود العينين جاحظُهما، في هيئته ما يوحي برزانة، وما هي برزانة!) أجاب باحتشام بالغ:

– سيدي – أعزك الله – فلتسمح لي، بدءاً، أن أخبركَ عن اسمي. أنا ناقدٌ أدبيّ، غير أنّ الناس يطلقون عليّ لقب «النّاقِدِ الدُبّي»، ودعني – يا مولاي

– أخبرك مـا الذي جعلهم يلقبونني على هذا النحو. فأنـا، وبكل تواضع، ناقـد، وهذا جزء من اللقب، ولا يثير أية غرابة. لكنّ المثير للدهشـة هو الجزء الثاني من اللقب: الدّبي، نسبة إلى الدّب. وهم، كما ترون، لم يشـبّهوني بالدُّبّ، لأني ضخم وأكول. لا. لأني أصلاً هزيل يشـبعُ بعد وجبةٍ واحدةٍ خفيفةٍ طوال النهار. إن السـرّ في تشـبيههم ذاك هو أن الدببة تدخل في سباتٍ عميـقٍ، ولا تفتح عينيها إلا زمناً قصيراً، وأنا أيضاً، والحق يقال، أسـبتُ فـي نومي عن النقـد، ولو كنتُ متيقظاً، لزمن طويل. وما إن أستيقظ من هذا السبات، حتـى أنقـضّ على مـا كتبـه الشـعراء والروائيون، فأحاول نقدَه.

الظاهـرُ، يا مـولاي المحتـرم، أنـه لا ضيرَ في هذا الفعل، لأني لم أسـمع بأرضٍ تُعاقب كل شـخص يخلد إلـى النوم! لكني، والحقيقة أقولها لكُم، كان وأن اسـتيقظتُ يوماً، فلم أجد غير هذين الملعونين أمامي، بكتابتهما الماجنة والخليعة، قلتُ في نفسي: لا حرج أن أنقُدَ نوعاً جديداً من الكتابة، تفضح كل شيء. إذ رأيتُ أن في كلتا الحالتين، سـواء علينـا كتبنا عن المجون برموز، أم بغير رمـوز، فنحنُ نقعُ في الفضيحة، إلا أن الكتابة الرمزيـة لا تجعلنا ننفضح أمام الآخر، بل

ننفضح في داخلنا، ولعمري – يا مولاي – أنّ ذلك أسوأ، وأشدّ فضحاً.

وبعد اقتناعي التام بهذا الأمر، انكببتُ على قراءتهما، فنقدت آثارهما، وأعددتُ نقودي في كتاب. وهذا الكتابُ الملعون استقطب قراءً بالآلاف، فأصبحوا بالملايين، إلى أن قال أحد حراسك: لقد بلغ السيلُ الزبى أيها الحقير! وذلك فجراً، حين كنتُ نائماً بجانب زوجتي التي خافت كثيراً ولم تُحرّك ساكناً، أرادتْ في ذلك الفجر أن تُقنعني بأنها نائمة، لكن لا، أيتها الحقيرة، لا، لقد كنت يقظةً، وبئس اليَقِظات، وأزواجهن مختطفون!

هذا كل ما حدث – سيدي ومولاي – قبل أن يتم اقتيادي إلى قصركم.

نظر الحاكم إلى الرجال الثلاثة نظرات غامضة، نادى على وزرائه ومُستشاريه لعقد مجلس للشورى، فانتهوا إلى قرار غريب.

لم يؤثّر فنجانُ القهوة في همنغواي أبداً، لقد غلبهُ النعاسُ دفعةً واحدةً. آه ماذا عساي أن أفعل؟ يا ليته نام بعد نهايته من القصة. حينئذ فَـ«بلا رجعة» إن أراد. لكن أن يقف عند هذه الأحداث ثم ينام، فهذا ما لن نقبلهُ أنا وقرائي. فكرت في طريقة ما. أخذتُ كوباً من الماء

فأفرغتُه على وجهه، نهض فزِعاً من نُعاسه وقد تبلّلتْ لحيتُه، فعاتبني وهو يتنفس بسرعة:

– ماذا تفعل؟ أجننتَ أم ماذا؟ لقد أفزعتني أيها الغبي!

– أعتذر جداً عن هذا، إننا منشدّون إلى قصتك كثيراً، أتنامُ ونحن على هاته الحال؟.. متمالكاً نفسي، قلتُ وقد أمددتُه بفنجان آخر من القهوة. انتزعه من يدي، وبدأ يرتشفه رشفاتٍ طويلةً. فقال وهو يشزرُ فيّ بعينيه الغامضتيْن:

– من أجل الجوائز فقط سأواصلُ القصة، من أجل الجوائز فقط...

بعد لحظات، عاد الحاكم إلى مكانه، وجلس على عرشه، وكل من في المقام ينتظر حكمه، فقال:

– أنتم أيها الثلاثة، إن قانون محميَّتي هذه، يحتّم عليّ أن أعدمكم إعداماً، لأنكم انتهكتم القانون الأساسي هنا، وهو: ألا تمسكم الفاحشة، فنحن، كما ترون، وكما هو مكتوب، شعاراً، أعلى باب قصرنا الكبير، لا نقرب الفاحشة طبعاً. وبما أنكم قد تعدّيتُم حدودكم، ومن تعدّى الحدود فقد ظلم نفسه، فإننا قرّرْنا أن نُقَدّمكم، هذا اليوم، إلى المقصلة، لقطع رؤوسكم؛ لأنها، كما قال مثلنا الأعلى، قدْ أيْنَعتْ.

أيها الحرّاس، خذوا عني هؤلاء!

انقضّ الحــراس علـــى الثلاثــة، وأخذوهم إلى
الســاحة التـــي يجــري فيهــا الإعــدامُ بالمقصلــة.
عصّبوهم وغلّلوهم، وجعلوهم ينبطحون أرضاً.

هنا نام همنغواي، على أني قد أشــبعته صفعاً ولكماً؛ لكن الملعون لمْ يُفِقْ. كان يجب أن أســتغني عن هذا الســكّيرِ بــأي طريقة. ففتّحتُ عيني، ليختفي من أمامي، وقدْ ضجرْتُ منه هو، لا قصتَه.

علـــى يســاري نظرتُ نظــرةً خاطفــةً، ولأني أؤمــن بالعلامات، كباولو كويلو تماماً، سقطَ كتاب ضخم من رفّ الخزانة. هرعت إليه. كنــتُ أظنّه «مادام بوفاري» لفلوبير، لكني سُــرعان ما اكتشــفتُ أنّهُ لدوستويفســكي، وعنوانه «الأبله». فكرت: أهذه إهانة من العلامات؟ لكن سرعان ما تناسيتُ الأمرَ، فبدأتُ أقرأ الكتاب بنهم، حتى وصلتُ إلـــى مســتوى كان فيه «الأمير مشــيكين» يحكي قصة عــن الإعدام بالمقصلـــة. وكمــن عثرَ على ضالّته، غمّضــتُ عيني لأحضر فيدور دوستويفسكي إلى هنا، فهو الوحيد الذي سيستطيعُ إتمامَ القصة.

لكن، يــا قراءنا الأعزاء، أنا لن أحضر الروســي دوستويفســكي إلى هذا الفصل، أتعلمون لماذا؟ أنا لن أخبركم عن الســبب على نحو مباشر، لكن، يمكنكم قراءة هذه العبارة المزعجة: «سيشتم هنا رائحة الأمريكيّ، ولن يرضى سردَ القصة».

إذاً، كونوا معي في الفصل القادم!

(6)

فـي هذا الفصل، الفصل السـادس، وعلى الرغـم من أن الفصول أربعة فقط، قررتُ، ونزولاً عند رغبتي، عفواً، رغبتنا كقراء مُنْشَدّينَ إلى كلّ ما هو مشـوّق، أن أسـتدعي الكاتب الروسـي الأعظم فيدور دوستويفسـكي، ليحكي لنا تتمة القصة التـي بدأها الحائزُ جائزة نوبل للآداب لعام 1954، والذي لا أريدُ أن أذكر اسمه طبعاً.

هنا، سـأغمض عيني، وسـيتجلى دوستويفسكي في حلته الخلابة. لكـن قبل ذلك، آملُ منكم أن تغمضوا أيضـاً أعينكم، لكي تكون، لكل واحد منكم، الحرية في تخيُّل دوستويفسـكي الخـاصّ به، فأنا، وبكل تواضـع، وإن كنـتُ قليل الفهـم والدراية في أمور كهاتـه، أحب أن يصبـح كل أدب أدباً عالمياً، ستسـألون لماذا؟ حسـناً، لقد مدّ لي، في الحلـم بطبيعة الحال، الأديبُ الألماني غوتـه روايةً صينيةً، وقال لي فـي نبـرةٍ واثقةٍ: «لم أكن أعرفُ أن الأدب عالمـيّ بطبعه! خذ وتأكّد بنفسـك». اسـتلمتُ الروايةَ، قرأتها، فصرتُ أوافق غوته في نظرته المتميـزة تلـك، وصرت أيضاً أحـب كل أدب يصبو إلـى هذه الغاية النبيلـة: العالميـة. إلا أنه ذات يـوم، وأنا أتجول في شـوارع فايمار،

التقيتُ شـخصاً مجهـولَ الهوية. لم ينبس ببنت شـفة أمامي، واكتفى بوضـع بطاقة صغيرة في يدي، نظرتُ إليها باندهاش، بطاقة مكتوب عليهـا: «أنـت لم تفهم غوته، أنـت لم تفهم غوتـه!» موقّعة على هذا النحو: «كاتب من المسـتقبل». وما إن رفعتُ رأسـي صوب الرجل المجهول، حتى ألفيته قد اختفى!

أضروري أن أستطرد، وأهذي؟ أعتذر، فلنُحضرْ أديبنا الكبير!

ثلاثة...

اثنان...

واحد...

نظرات صقرية، صلعة خفيفة، كأنها جزيرة تلفّها بحارٌ بيضٌ من الشعر، لحية طويلة، وبادٍ أن الرجل يعتني بها كثيراً، معطفٌ طويلٌ، (لـم يسـرقه من غوغول على كل حـال)، حذاء مُلمّع إلـى حد كبير. يبـدو أن الرجل مهموم جداً، كأنه الفارس ذو الطلعة الحزينة! منذ أن أحضرتُـه وهو جالـسٌ القرفصاء، ممعناً النظر إلى أشـياء لا أراها. إنسانٌ هادئٌ جداً، لم ينبس ببنت شفة، ولا حتى لمْ يفْجأ لوجوده هنا!

فكرت: إن تركته على هذا النحو فلا قصة ستُحكى اليوم. عليّ أن أبادره بالتحية.

– مرحبـاً بك في بيتك يا فيـدور..! قلتُ بلباقة لم أعهدها حتى مع السارد.

– مرحبـاً صديقي. قـال، وصمت لردح من الزمن. ثم أضاف: قدْ تبدو كلمة «بيت»، هنا، في غير محلها. أليس كذلك؟

خجلتُ جداً. فأجبته مستدركاً الوضع:

– نعم يا سـيدي، إنها في محلها، بـل أكثر من ذلك، خصوصاً إذا عرفـتَ أن ذكرياتك في القبو توضّح للقارئ، ولو كان عادياً، فظاعته وصعوبـة العيش فيـه، حتى ولو افترضنا أنه قبـو رمزي. على كل، ليس هذا هو سـبب اسـتدعائك سـيدي، فأنت لن تبقى هنا طويلاً. لا تقلـق، سـتعود إلى قبرك، أو قبـوك، في أقرب وقـت ممكن، بعد أن تحكـي لنا البقيـة الباقية من القصـة، بإمكانك قراءة مـا كُتِبَ أعلاه، وإبداع خاتمة مناسبة تريحنا.

شزر الرجل بنظراته الحادة فيما كُتبَ، وقالَ:

– جيد، ألي أن أعرف من سرد القصة؟

– أجل.. حسـناً.. لقد كتبها.. لقد كتبها كاتب. قلتُ مُتلعثماً كأن بي لثغاً.

– ماذا أضفتَ بردّك؟!.. بثقة قال.

– حسناً، لقد كتبها الصحفي مودعُ السلاح! أجبتُ مواربياً.

– لمـاذا كل هذه المواربات؟ لا يشـرفني أن أواصِـلَ ما بدأهُ ذاك الأمريكي، الذي أترفّع حتى عن ذكر اسـمه. قال مكتشـفاً تلميحاتي،

وأضـــاف ليريحني: لكني لســتُ عنصرياً إلى درجــة أن أخيبَ حبّك للأدب العالمي. سأتمّم القصّة.

ويا لفرحتـــي، وفرحة قرائي، حينما ســمعتُ جملته الأخيرة، تلك التي أحببتُها جدّاً!

وأضاف:

– فلتنصتوا إذاً..

بعدما قيدَ الثلاثة إلى الساحة الشاسعة، منتظرينَ أجلهم القريب، أعـدّ الحراس ثلاث مقصلات، ليتم إنهـاء المعتقلين في لحظةٍ واحدةٍ، كما أوصى بذلك الحاكـم. تهامســوا فيمــا بينهم بارتعاد شــديد، فقال الطويل:

– يــا له من شــعور مخيــف أن تُحصي دقائقك الأخيرة، وأنت لا تدري في أي وقت ستُبعد المقصلةُ رأسَك عن جسدك!

فردّ المتوسّط:

– أنت محقّ صديقي الشــاعر، يا ليتك لم تضيّع ثانيــة واحدة من حياتك! أمّا أنا، فقد عشــتُ حياتي طولاً وعرضــاً، وإن أعدَموني فلن يكونوا بذلك قد اقترفوا أي ذنب، إذ ما فائدة الأشواط الإضافية التي أعيشها الآن؟

تدخّل القصير:

– اصمُتا أيها الملعونان! بسببكما سألفظ اليوم آخر أنفاسي، يا ليتني واصلتُ سُباتي، يا ليتني لمْ أُفق على وجهيكما أيها المعتوهان! إذا قُمتُ بنقد آثار ماجنة، وبينتُ وجهة نظري فيها، فما ذنبي في ذلك؟ هل أنا صاحب هذا الشعر، أو صاحبُ هذه الرواية؟

ردّ المتوسّط بسخرية، كمن يجلس في مقهى:

– أنت صاحبُ هذا النقد!

– أجلُكَ قد لا يتجاوز خمس دقائق وتضحك؟ طبعاً ستضحك، لأنك صعلوك لا أسرة تنتظرُك، أما أنا فأفواهٌ جائعة تنتظرني، وزوجة خرقاء قد تقوم بفضائح لا يمكن أن تتصورها إن لم أعد إليها في أقرب وقت. آه أيها الخليعان، كل هذا نتيجة مجونكما، يا إلهي! يا إلهي!.. بغضب، وبكاء شديد، يردّ القصير، ملقياً كل اللائمة على الآخريْن.

– أتعلم؟ لقد تغيّرَ مفهوم الصعلوك منذ الجاهلية إلى الآن، ففيما سبق، كان الصعلوك هو ذاك الشجاع الذي يسرق أموال الجشعين والأغنياء المتعجرفين، فيقدّمها للفقراء، مُساعداً إياهم على

هزم جوعهم الشـديد، أما الآن، فقد أصبح ذا معنى قدحـي جداً، لذلك أفضّلُ أن تسْـحَب هـذه الكلمة يا صديقي النّاقد القصير.

لمْ يُعر القصيرُ انتباهاً لما كان يقوله المتوسـط، لذلك اكتفى بالصمت محاولاً استغلال أجزاء الثواني مـن دقائقـه الخمـس الأخيرة، فقـرر أن يخصص دقيقتين لتذكر أسـرته وأحبائه، ودقيقة في الانتقال إلى الدقيقتين الأخيرتين اللتين خصصهما للتسـبيح وطلـب المغفرة. أما الطويل، فقد كان له رأيٌ آخر، فبمـا أنه على وشـك المـوت، قرر أن يلهي نفسـه في ترتيل أشـعاره الأولى المفعمة بالأمل، محاولاً نسـيانَ مخاوف ما قبل الموت. أما المتوسّـط، ويا للغرابـة، فقـد كان ينتظرُ المقصلـة أن تخلّصه من شقاء الحياة، إذ لطالما ردّد أن الحياة معاناةٌ ومأساةٌ وشـقاءٌ، وفي تلك اللحظـة، ولو لم يُشـدَّ على فمه بمنديل، لصاح: خَلّصونا يا ناسْ!

وفي هذه اللحظات، يُسـمعُ صـوتُ خطو وئيد على أرض الساحة، اعتلى الصوت أرضية الخشبة المرتفعـة فـي وسـط المـكان، وصيحَ فـي الجمع بصوت عالٍ:

– أيها الناس، اسـمعوا وعوا، سـيلقي الحاكم،

بعد قليل، على مسامعكم، حكمه في حق المعتقلين الثلاثة، لذلك يجب عليكم أن تلتزمُوا الصمت، ومنْ نبس بحرف واحد في حضرة مولانا، سيعرّضُ نفسه لمتاعب كثيرة، ولقد أعذر من أنذر!

فرح الطويلُ والقصيرُ لهذا الخبر أي فرح، إذ به قد ضمنا لنفسيهما دقائق إضافية، فصار الأول يطيل في ترتيل أشعاره «الآملة»، مُنتقلاً من حين لآخر إلى أشعاره الماجنة، وأما القصير فقد أضاف في تذكر الأحباب دقائق، وفي التسبيح والإنابة دقائق أخرى، مُبقياً على وقت الانتقال من التذكر إلى التسبيح في حدود الدقيقة، لكن هذه الدقيقة التي تحوله من الفعل الأول إلى الثاني، كانت بالنسبة إليه بمثابة مطهر دانتي.

أما المتوسط، فقد لعن حظّه التعيس، فلا الحياةُ استقامتْ له، ولا الموتُ يريدُهُ، فاستسلمَ للزمن الذي أتعبه البحثُ عنه، ولم يجده.

وفي غمرة هذه الوشوشات المقصلية، يُسمَعُ صوتٌ ينادي بأن الحاكم سيلقي الحكم الآن، فتتوَقَّفُ الآذانُ عن التصفير، منقادة للقرار الذي سيأتي به هذا الحكم التاريخي.

يعتلي الحاكم الخشـبة، مطلقـاً أصواتاً قصيرة، تعلن عن بداية كلامه، فيقول:

– أما بعد،

يُفترض منـي كحاكم، وكحامي شـعب الكتّاب والشـعراء والمبدعين، أن أبـتّ في الحكم على أي خروقـات فـي منظومتنا، ولأنـي عادلٌ إلـى أبعدِ مدى، فإنـي سـأحترمُ القانون، باعتبـاره فوق أي إرادة: إرادتكم طبعاً.

فبمقتضـى القانون المصادق عليه في منظومتنا هذه، والذي ينصّ على أن كل مقترب إلى الفاحشـة سينال إعدامه دون أي تردد، طبقاً للقاعدة «نحن قوم لا نقرب الفاحشـة»، المسـطرة أعلى باب القصر، فإننا قـد قرّرنا أن نفصـل رؤوس المحكومين عن أجسـامهم الآن، جزاءً على مـا اقترفوه من جرائم عظيمـة، إذ لا حاجـة لنا في مجتمعنـا الوقور إلى مثـل هـؤلاء المنحرفين. ومن هـذا المنبر، فليتعظ كل أديب سـمع بهذا الخبر، ومن لم يسـمع به، فإن القانون لا يحمي المغفّلين.

تنهّدَ المتوسـط، وسرت الرعشـات في عروق الآخريـن، منتظرينَ آخرَ لحظـة في حياتهما. وفي هذه الآونة، عَدَّ المُعدِمُ إلى ثلاثة:

– واحد..

اثنان..

ثلاثة..

فاستيقظ الاثنانُ من كابوسيهما هذا دفعة واحدة، شـاكرين حامدين على كون القصة مجرّد كابوس، أما المتوسـط، فحـلا له أن يواصـلَ نومَه الوردي الهنيء ذاك، لولا أشـعة الشـمس المنبثقة أصابعها من بين فجوات النافذة، فاتحةً عينيه رغماً عنه.

هكـذا، ومع مرور الأيام، صـارَ الثلاثةُ يخفونَ هـذا الكابوس لا يريدون سـردَه لأي شـخص، لما فيـه من أثـر في النفـوس الضعيفة. وذات مسـاء، قـرّر الثلاثة أن يلتقوا في مقهى، قصد الترويح عن النفس قليلاً، وإن كانت ذاكرتي تنفعني، فلربما اسمُ المقهى هو «الصراحة». كان المقهى ضاجّاً بالذين يتصارحـون فيمـا بينهم، إذ ما مـن قيمة حاصرها المجتمع إلا ووجدت هنـاك طريقها الحرّ إلى آذان الآخرين.

جلسوا حول مائدة مثلثة، لها ثلاثة مقاعد، التحق بهم النادلُ بسرعة كبيرة، كأنه خاف هروبهم، طلب الطويل فنجان قهوة سـادة، والمتوسط طلب «نصْ

نصْ»، أما القصير فطلب فنجان قهوة صغيراً.

بادر الطويل بالحديث:

– في الحقيقة، لقد أتيتُ هنا بصحبتكما لأجل أن أحكي لكما عن كابوس شقيّ، حلمتُهُ منذ أسابيع، لقد آلمني جداً ألا أفصح به إليكما.

فردّ القصير في دهشة، وهلع:

– وأنا كذلك أتيتُ لأروي لكما كابوساً!

أما المتوسّط، فلم يجد غير مسايرة جوّ صديقيه. فقال:

– وأنا أيضاً رأيتُ حلماً.

وزادتْ دهشتهما حينما رأوا أن ثلاثتهم حلموا بكوابيس، وفي الوقت نفسه، راح كل واحد يروي كابوسه، فيردد الآخر، في صياح، بأنه هو أيضاً رأى نفس الكابوس، مندهشين من هذه الصدفة الغريبة والمخيفة في الآن ذاته! ولمّا بادروا لتفسير هذا الكابوس، (يفسّرونه ولو كان كابوساً!)، انتهوا إلى أنهم سيتعرضون إلى نفس الأحداث، إن لم يقوموا بخطوات تحميهم من ذلك. فلم يجدوا حينئذ إلا أن يفصحوا بالأمر لكل من بالمقهى.

اندهش الجميع من الأمر، واستنكروا هذا الحصار الذي بالغ مجتمعهم في مضايقتهم به دون فائدة، فخرجوا بشعارات ولافتات تنديدية، إلى أن نالوا حقوقهم في التعبير عما هو موجود!

وهكذا، أنهي القصة نهاية سعيدة، كي لا أحزنك أيها المسرود له، ولا أحزن القراء الأوفياء، تاركاً في نفوسكم ذكرى طيبة عني، وهنا أدعوك إلى فتح عينيك تارة أخرى، لأتمكن من العودة إلى سانت بطرسبرغ، الآن. إلى اللقاء.

* * *

فتَّحتُ عيني ليختفي دوستويفسكي، ولكي أخبركم، أيضاً، بأني افتقدتُ السارد، لقد مرّت على مغادرته أيام عديدة، وإني لم أكن أتوقّع هذا أبداً، وكأنه اختفى بغير أَوْبةٍ. يجب أن أراسله مهما كان الثمن، حتى لو كان ذلك مستحيلاً، فما دمنا الآن في رواية، فلن يكون صعباً عليّ أن أتراسل مع السارد، دون أن أبرر الطريقة التي تصل بها الرسالة وتعود. لذلك، قرائي الأعزاء، وبعد أن أنهينا متابعة القصة الأمريكوروسية، أدعوكم إلى متابعة الرسائل بيني وبين السارد، في الفصل القادم، وإني لأتمنى لكم، كما العادة، قراءة سعيدة؛ إذ ما مرادُ كاتبٍ ما غير أن يشعرَ قارئه بالفرحة، وهو يتابع سطوره، لحظة بلحظة!

وللعلم فقط، فإن رسائلي لن تكون فارسية بما يكفي، لأكون مثل

مونتيسكيو، بل ستكون، فقط، رسائل عالمية. لن أكتبها لا من باريس، ولا من أزمير، ولا من قُمْ، ولا من توسكانيا، ولا من أي منطقة أخرى من هذا العالم، سأكتبها من القلب، ولا تظنوه قلبي أنا وحدي، بل قلب الإنسانية جمعاء!

(7)

عزيزي السارد،

أتمنى أن تكون في صحة جيدة، فلا بدّ أنك تعاني جداً في سفرك غير المرتقب هذا. لقد اختفيتَ لمدة طويلة، مما حملني على كتابة هذه الرسالة.

إن أوضاعي الحكائية لا تبشّر بخير، فأنا محتاج إليك كثيراً. إنه لا يسعني هنا أن أخبرك بمقْدار فشلي في مهمة الحكي. لقد تركتُ القراء يسخرون مني ملء أفواههم، بسببٍ من أني «أخلط الحابل بالنّابل»، ولئن كنتُ أظن أن سرودي متناسقة فيما بينها، إلا أن الأمر يزداد تأزّماً، يوماً بعد يوم.

وبالمناسبة، فإني أودّ أن تصفح عن خطأ شنيع اقترفته في هذا المكان، فلقد قمتُ بإحضار همنغواي ودوستويفسكي دون علمك بالأمر، ولذلك فإني أقبل بأي عقوبة منك في حقي.

وبعد كل ذلك، فإنني أتمنى من أعماق قلبي أن تخبرني عن مكانك

الآن، وأن تراسلني في أقرب وقت ممكن، بل فورَ قراءتك للرسالة.

من قلب الإنسانية، (بدون تاريخ)

أنـــا

عزيزي أنا،

لقد تلقّيتُ رسالتكَ بفرح كبير؛ إذ إنها خفّفتْ من معاناتي هنا كثيراً. إن صحتي على ما يرام، وأنا في صدد إنهاء عملي.

حكاياتك، يا أنا، ليستْ فاشلة، فإذا وجدتْ قراء مناسبين، يعون ما يُكتَـبُ إليهم، ولا يكتفون بالقراءة التي تطفو فوق السـطح فقط، فإنها سـتلقى رواجاً كبيراً، ويمكنك أن تتقدم لأي دار للنشـر، ولسـوف لن تتردّد، أبداً، في نشرها.

أمـا بخصوص اسـتدعائك للأديبيْن العملاقيـن، فإني لا أمانع في ذلك أبداً، بل على العكس مما تعتقد، فإني أحثك على استدعاء المزيد من الأدباء، لكي تحقق العالمية التي تنشدها.

واعلم دائماً أني كنتُ، وسأظل، السارد المطّلع على كل الأحداث، ولسـتُ، للأسف، مثل هؤلاء السـاردين المشاركين، أو الذين يكتفون بحكي ما يرون، لذلك فإن مسـؤوليتي كبيرة جداً، مقارنة معهم، لأني ملـزَمٌ بالدخول إلى أعماق الشـخصيات، ومعرفة كل الأحداث، حتى أكثرها سرّيةً.

وأما سـؤالك عن مكاني الآن، فإني موجود في تاريخ المنسـيين، أبحثُ عن بطلنا المهَمَّش والمُعارَض دائماً، إني على وشْـك أن أجده، ثم أعود إليك، فلا تجزع.

إلى قلب الإنسانية، (بدون تاريخ)

السارد

عزيزي السارد،

كم كانت سـعادتي عارمة حينما راسلتني بهذه السرعة. إني كنتُ أضعُ مراسلتك لي موضع الاحتمال دائماً، ولكن ها أنت ذا قد كسرْتَ هذه الاحتمالات بكلّ يسر!

أودّ أن أشكر ثقتك بي، وتشجيعك الدائم لي. ولو أنني لم أفهم كثيراً مما سطرته في رسالتك هذه، إلا أنني، وأعتذرُ عن تردّدي على نفس الموضوع، أودّ أيضاً أن تنصحَني بشيء ما أقوم به لكي أصبح سارداً ماهراً، وأنتَ تعلمُ كم مريراً ذُقتُ، وأنا بصدد البحث عن هذه الأمنية النبيلـة، ولا أرغبُ في مزيد من الاختبارات؛ لأني قد تعبتُ حقّاً. وإذا كنـتَ تعرف طريقة ما تسـعفني في الوصول إلـى مرادي على وجه السرعة، فإني لن أستطيع وصف مقدار امتناني لك.

من قلب الإنسانية (دون تاريخ)

أنـــا

عزيزي أنا،

لقد وصلتني رسالتك، ويا لمقدار تعجبي من مطلبك!

لقد أخبرتُك دوماً أنك لا تحتاجُ الآنَ إلى معلم يسـهر على تعليمك فنون الحكي، وطرائق إبداع الرواية، ولعل الشاغل الذي يشغلنا الآن هو أكبر دليل على ذلك.

إني لسـتُ مثل هيزيود، الذي نصح أخاه بيرسـيس في «الأعمال والأيام»، لكي أسـدي لك ما ترغب من النصائح. ولعمري إن شاعراً فلسـطينياً لم يتوان في الإجابة عن سؤالك في آخر الكلمات من حياته إذ قال:

«لا نصيحة في الشعر، إنها الموهبة».

وهكـذا، أيضاً، فلا نصيحـة في الحكـي؛ لأن الموهبة تكفي لكي تحملك إلى آفاق بعيدة، وبعيدة جداً.

أودّ أن أزفّ إليك خبراً: إني أكاد ألفي ضالتنا.

إلى اللقاء.

إلى قلب الإنسانية (دون تاريخ)

السارد

عزيزي السارد،

لقد حاولتُ فكّ رموز رسالتك بصعوبة كبيرة، لكني قد لا أصدقك القول، إذا قُلتُ إني فهمتُ كل ما وردَ فيها.

دعكَ من حالي، وصفْ لي قليلاً هذا التاريخ المنسي الذي حدّثتني عنه، إني متشوّق لمعرفة شكل هذا العالم الذي تسبح فيه الآن.

أتمنى أن تعود بسرعة، فأنا، والقراء جميعهم، متشوّقون إلى حكيك.

من قلب الإنسانية، (دون تاريخ)

أنـــــا

عزيزي أنا،

لقد نسيتُ أن أخبرك في الرسائل الفارطة عن شكل التاريخ المنسي، ولِتَعذر سارداً أضنته مسؤولية الإنسانية، ولم يعد قادراً على ضبط أموره على نحو كامل.

شكل التاريخ المنسي؟ إنه لا شكل له، فضاء معتمٌ جداً، وأحياناً أرتطم هنا بأشخاص آخرين يبحثون عن ضالتهم. وذات مرة، اندفعتُ في الظلام، فارتطمتُ بشخص لا أعرفه، فتقدّمتُ إليه باعتذاري وأعذاري، وأجاب أن لا مشكلة. وقال لي:

– عمَّ تبحثُ في هذا الظلام الدامس؟

فأخبرته عن الشخص الذي أبحث عنه، وكيف أن الناس لم يقدّروا أدبه، ورموه في جحيم التاريخ المنسي، دون أي رحمة، وحتى إن تذكّروه، فإنهم يسخرون منه، ويشمئزون مما كتبَ، كأنه كذب في ما كتب!

أبدى تفهّمه، وأخبرني بأن الناس لا ترحم من لا تفهم، فخفّف من آلامي. ولما أعدتُ نفس السؤال عليه، مستفسراً عن الغاية وراء وجوده هنا، أجاب:

– صراحة، صديقي السارد، يعود سبب وجودي معك إلى أني أبحثُ عن مؤلَّف مُلقى هنا في التاريخ المنسي، وبالأخص، في التاريخ المنسي العربي. وهو كتاب غني جداً، لكنهم أهملوه لأنه، بحسبهم، غث بارد لا فائدة فيه. وسبب آخر هو أن الشعر قد أخذ حصة الأسد من الأدب، واستأثر به وحده. ولما وجدت الغربيين يعودون إلى هذا الكتاب، ويقرؤونه، ويدرسونه، بل يعدونه من أروع روائع الأدب العالمي، قررتُ، أنا الذي لم أعرف هذه الرائعة إلا من أفواه الغربيين، أن أخترق التاريخ المنسي، وأبحث عن ضالتي هذه، وأحاول أن أعيد إليها شعاعها الأسطوري.

– إذاً، أنت الآخر تبحثُ في الظلام عن ضالة مثلي، قل لي: ما اسم هذا الكتاب؟ وإني لأشك في الليالي العربية؟

– هو بالذات أيها الصديق الرائع!

– إني لا أشك أبداً في أنك سوف تعيدُ إليه وهجه المفقود؛ إذ لا بد للحقيقة أن تعتلي عرش التاريخ!

ومـا هي إلا لحظات، حتى فعل مثل أرخميدس، وصاح عالياً: لقد وجدته! لقد وجدته! ليختفي بعد ذلك بالمرة، ولم يظهر له أثر. وليست هـذه الواقعة إلا نزراً يسـيراً من مجموع ما صادفتـه هنا، فمنهم من يبحـث عن التوحيدي، ومنهـم من يبحث عن ابن عربي، والآخر عن النّفـري، وهذا عـن الماهابهارتا، وذاك عن الأوديسـا، وآخرون عن قصائد هايكو لشـعراء يابانيين مغموريـن... لكنهم في النهاية يجدون مـا ينقبون عنه، ويفـوزون بطموحاتهم، ويعودون إلـى حالهم نائلين جدواهم. أما أنا، فلا زلتُ.

ولا شـك أنك ستسألُ: كيف تعرف أنك موشك على إيجاد ضالتنا؟ سـأجيبك أني وجدتُ شـخصاً هنا يبحثُ عن بول بولز، وجان جينيه، وتينيسـي ويليامز، وقـد وجدهم جميعاً، ولمّـا كان هؤلاء قريبين من ضالتي نوعاً ما، استنتجتُ أني أكاد أجده.

صُن نفسك يا أنا.

إلى قلب الإنسانية (بدون تاريخ)

السارد

عزيزي السارد،

لقـد بررتُ لك عدم وصفك الدقيق للتاريخ المنســي، لأنه لا يمكن وصف الظلام إلا بالســواد، ولا شــك أنه لو وقعت عيناك على شيء، فلن تتوانى في سرده ووصفه. وهذا مما عهدته في شخصك الوفي.

ومما يجدر بي أن أذكره لك، هو أنني لا أعرف كثيراً من الأسماء التي ذكرتها لي في رسالتك، لأنك تعرف حدود علمي في الحكي.

أما الأسماء الأخيرة، فإنني أعرفها، لكنني لا أتذكر كيف عرفتها! وقد اكتشفت، بعد محاولة تذكّر حادّة، أن هؤلاء الثلاثة، أعلام غربية كانــت تــزور طنجة، وبطــل الحكي يعرفهم نوعاً مــا، إذ لا يمكن أن نقول إننا نعرف جيداً الأشــخاص الذين من حولنا، فما الإنسانُ سوى ذلك المجهول!

ولكيــلا أخرج عن موضوعنا، فإنــي آملُ... آملُ من أعماق قلبي، أن تجــد ضالتنــا ونرتاح قليلاً، لقد تعبنا من أصابع الاتهام الغاشــمة، وفي أحسن الأحوال، أصابع الاتهام مسيئة الفهم.

عدْ إلينا سريعاً.

من قلب الإنسانية (دون تاريخ)

أنـــا

عزيزي أنا،

لقد وجدتُه. أو بالأحرى هو الذي وجدني، لقد صادفتُهُ في الطريق المظلمة، وهو يهذي بكلمات عجيبة. أوقفني، وقال لي:

– هيه، أتبحثُ عني؟

– من أنتَ؟

– أنا أنتَ، أنا كل من أخلص للإنسانية.

وهنـــا فقط، أدركتُ ضالتي، ويا لفرحتـــي وفرحتك وفرحة القراء جميعاً!

حاول أن تجهّز المكان وترتّبَهُ، لك من القدرات الحكائية ما يجعلك قادراً على ذلك.

دع هذا الفصلَ، وانتقل إلى آخر، ولا تُعِدْ إرسالَ أي رسالة أخرى.

إننا قادمان.

إلى قلب الإنسانية (دون تاريخ)

السارد

أنا أحكي، إذاً، أنا لن أموت!

(1)

لا شكّ أنكم، مثلي، تنتظرون العائد من النسيان؟ لا شك أنكم أيضاً تودّون رؤية الحقيقة... رؤيتها تلبس تاجاً، وتعتلي عرش الأبدية؟

لقد سُـعدتُ جداً بالخبر، وأنتم أيضاً قرائي الجميلين سُـعدتم، أعلم ذلـك؛ لأن التشـوّق إلى المعرفة عنصـر غريزي فينـا، كلنا نود أن نعـرف ما يخفيه لنا المسـتقبلُ، نريد ذلك سـريعاً. لكـن، أليس للتأني حلاوتـه؟ وللانتظار طعمه الفراولي اللذيذ؟؟ إننـا لا نريد المزيد من الانتظار، لكن، ما إن نحصل على الشيء المُنتَظَر، حتى يفقد، بالنسبة إلينا، قيمته! أترون كم نحن مثيرون للضحك والسّخرية؟

وما الفائدة من حكي كل ذلك؟ هكذا أطرح عليكم سؤالي كل مرة.

إن أحداثاً بسـيطة بالنسـبة إلينا، قد تكون أعمق مما نعتقدُ بالنسبة إلـى آخرين، والعكسُ بالعكس. لكن، أليس جوهرُنا الإنسـانيُّ واحداً؟ أليس الخيرُ خيراً والشـر شـراً؟ لا يتناطح كبشان حول مسلمة بديهية كهاته. لكن ما يثير الغرابة حقّاً، هو كوننا نرى العالم من ثقب الإبرة، ونتبجّحُ بالأمرِ علاوة على ذلك!

بعد الآن، سنكون أمام الحقيقة، تُعرض على شاشة سينما كبيرة، ولن يكون بمقدورنا، بعد المشاهدة، إنكارُها. أليسَ من الغريب أن يدفع المتفرج ثمن التذكرة، ويدخل إلى السينما، ثمّ يرى الحقيقة منتصبة أمامه في تفاصيلها، ثم بعد كل ذلك يقول: أنا بعد الحقيقة، هو نفسي أنا قبل الحقيقة! أنتم، قرائي، أعلم أنكم لن تفعلوا ذلك، أنتم معي منذ الوهلة الأولى، فلا حاجة بكم إلى التغير بعدُ.

يبدو أني مرتبك قليلاً. ولا أعي ما أقول، بل أقول ما لا يجدر به أن يقال، أو أقول قولاً لا معنى له! تتراقصُ الكلمات في خيالي معلنةً تفاهتي، وأنا أقول لها: لا حاجة بك إلى أن تعلني ذلك، فإن الأمرَ تحصيلُ حاصل!

السارِدُ وبطلُ الحكي آتيان، أنا لم أجهّز بعدُ المكان. المكانُ ضيّقٌ جداً، ولا يناسِبُ ضيفاً مثل بطل الحكي. إذاً، ماذا يُمكنني أن أفعله؟ السارِدُ قال: «لك من القدرات الحكائية ما يجعلك قادراً على ذلك»، لكن ما علاقةُ الحكي بتجهيز المكان؟ أيقصد...؟

(فغمَّضتُ عينيّ...)

* * *

في يومٍ غائمٍ، تصنع فيه السحابات الرمادية أشكالاً عجيبة وبديعة، وتحجُبُ الشمسَ التي سئمتْ من السطوع في ناحيتنا، ذاهبةً إلى الحياة المقابلة لنا حيثُ يبدأُ صباحٌ جديد، أتابع غنج الأشجار وهي تتمايل بفعل قبلات الرياح الخفيفة، وعلى درج الجبل الساحلي الطنجاوي،

ينشـرُ «مقهى الحافة» كراسـيه متنوعة الألوان والأشـكال، وأختارُ طاولةً مبتسـمةً لزرقة البحر ذي المهابـة. أرمقُ، من حين إلى حين، الأصـصَ الموضوعة بجانب الطاولات الأخرى، وأنسـى الأصيص الـذي بجانبي، أتلمّسُ بعنايـة أوراق النبتة الخضراء، وأسـبلُ عليها عيني لتنطلق منها نحو الأفق الأزرق، حيث تنحني السماء لتقبّل بهاء البحر العظيم!

وحدي أرتشـفُ فنجان القهوة السـاخن، والرياحُ الخفيفةُ تعيدُ إليّ عبيره البُنّي. محفظتي بجانبي. فتحتها. أخرجتُ منها الأعمالَ الكاملةَ لـبطل الحكي. صرتُ أتنقل بين صفحاتها، وأتذوق المرّ بطعم الحلاوة، وأرى القبـحَ بمنظر الجمال. جمال الطبيعة في الخارج. جمال الحكي في الدّاخل، كدتُ أرفرفُ عالياً، مستسلماً لنداء الجمال!

وحـدي أنتظرُ السـاردَ وبطل الحكـي، كي يُقبِلا علـيّ. مرّ وقتٌ طويلٌ على الرسـالة الأخيرةِ، وزمن الجمالِ مُتباطئُ حيناً، ومتسارعٌ حيناً آخر.

وفـي زمن الحلم هذا، فكّرتُ: كيف لا يبـدع بطلنا رواياتٍ، وهو المُقيمُ بطنجة؟ إن إنسـاناً لا علاقة له بالحكي وفنونه، قد يُصبِحُ أبدع إنسان على وجه الأرض، إذا عاشَ ونما هنا! إنه سحرُ طنجيس الذي لا ينضـب. طنجة الحلم... طنجة الأمل... طنجة الإنسـانية... تُرافقك نسماتها حيثُما تذهب، وتُذكّرك بهوائها الرطب، وسمائها الحُلوة.

ولا زِلتُ أنتظرُكَ

أيها العائدُ من النسيانِ،

والزمنُ الحُلميُّ

يتباطأُ

وأحياناً، يقِفُ

إجلالاً لجمال طنجيس.

* * *

الشـمسُ، فيما يبدو لي، على بعد لحظات من الغروب. المُنْتَظران لمَّا يزالا غائبين. أفكرُ في صمويل بيكيت، ألعن الشـيطان، وآملُ أن يتغيّرَ سـيناريو المسرحية. أرتشف ما بقي من سؤر فنجاني. سارعتُ إلى طلب شاي بالنعناع. تبدو الكأس، والشمسُ الذابلةُ تخترقُ زجاجها، كأنها مُرَصَّعةٌ بالذّهب. فبدا لي، للحظة، عسـلاً. شربتُه، ولو أنه كان ساخناً جدّاً، بسـرعة وبلهف، كمن ينْتظِرُهُ أحدٌ... وفي لمحة، صرْتُ أنا المُنتَظَر!

الوقتُ يمرُّ بسـرعة شديدة هذه المرة. يد النادلِ تربّتُ على كتفي، أخبرنـي بأنّ الوقتَ قد تأخّرَ، سـيتوقف المقهى عـن العمل بعد قليل. دفعتُ إليه ثمن الكوبين، وعدْتُ إلى سبيل حالي، إلى نقطة الانطلاق، إلى بيتِ الحكي الملهِمِ.

(ثمّ فتّحتُ عيني...)

(2)

– أهذا وقتُ النّوم؟.. قال السـارِدُ بامتعاض شـديد، وهو مُنتصبٌ أمامي كشجرة عتيقة.

– أهلاً بك أيها السـارد، لقدْ سُعدتُ جدّاً لرؤيتك، أعذرني، فلربما كان سوء فهم فقط!.. أجبتُ مُنتفضاً ومشاعري مُختلطة، لم أدر معها ما أبدأ به، وما أؤخّرهُ.

– على أيّ، هلّا شرحتَ لي الأمر؟

– لقـد فهمتُ من رسـالتك أنه عليّ أن أجهّـز المكان عبر قدراتي الحكائيـة، ففعلتُ. ووجـدتُ أنّ المدينة المعشـوقة لبطل الحكي هي المكانُ الأفضل لتضييفه!.. كمنْ اتّهم بجريمة، أجبتُ.

– وهـل عانيـتُ كلّ مرير في التاريخ المنسـي مـن أجلِ أن آخذ البطل إلى مكان مُرَفّهٍ كمقهى الحافة؟!

– أعتقـدُ أن خياري لم يكن موفقاً نوعاً ما، لكن كيف لي أن أُجهّزَ هذا المكان؟

– قصدتُ أن تزيد من تضييقه وتظليمه.. وتذكَّرْ دائماً: أن الاعترافَ لا يكونُ على كرسيّ مريح!

فهمتُ، أو بالأحرى، ربما فهمتُ ما كانَ يقصدُهُ السارد. ولكن، أنحن الآنَ سُلطة على بطلنا، كي نرغمه على الاعتراف؟ آملُ أن يكون اعترافاً من نوع آخر، كما نعترف لأنفُسِنا عما بأنفسِنا. آملُ ذلك جدّاً.

لكن تعالوا، لا بدّ أنكم تتساءلون عن البطل، أين يوجد؟ وكيفَ هو؟ إنها نفس الأسئلة التي تراودُني أنا الآخرُ في هذه اللحظة، ممّا يرْغمُني على الاعتراف بالقول: إني قارئ ضمني لنفسي!

أبديتُ كلّ الملامح التي من شأنها أن تجعل السارد يوقن بأني فهمته، (وهو يدري ما بداخلي، لأنه ساردٌ إمبراطور!)، ثمّ قلتُ:

– أين هو بطلنا؟ إنني لا أراه!

– يبدو لي أن آثار الغيبوبة لا زالت تفعلُ فعلتها فيك! ألا تراهُ هناك في الزاوية؟

منكفئاً في زاوية المكان، أراهُ مُديراً وجهه ناحية الشمعدان، فرائصهُ مرتعدة (ويا ليتها كانتْ تتوخى الدفء المادي!)، مُربّعاً ذراعيه، متّكئاً على الجدار، وجههُ شاحبٌ أذبَل من شمعة، ندبةٌ تعلو الوجهَ، ونـدوبٌ لا نهاية لها في القلب، عيناهُ غائرتان، أنفٌ يتدّلى بشموخٍ على الشاربِ الثلجي، وشَعْرٌ هاجر منطقة الرماد راحلاً،

بغير رجعة، إلى موسم البياض! أيكون وصفي المقصّرُ، ولو أصاب، قدْ أطلَعكم على حالة البطلِ الآن؟

مدّ السارِدُ إليه أقراصاً ليتجرّعها ويعود إلى طبيعته. سألتُ السارد عن اسمها فأجابني: «أقراص ضد التهميش». شزرتهُ بنظرة مستغربةٍ فأضاف: «دواءُ النّفس». يظنّ بإضافته هاته أنه قد هدّأ تساؤلاتي المتكاثرة والمتشعبة في داخلي! هو لا يظن، هو يفعلُ ذلك عمداً...

– كيف حالك الآن؟ قال السارِدُ موجّهاً خطابه إلى بطل الحكي.

هزّ رأسه من أعلى إلى أسفل مرتين، ففهمنا من إشارته تلك أن حالته قد تحسّنَتْ، وأضاف السارِدُ بعد ذلك:

– الأقراصُ التي أخذتَها كانت بمثابة النصف الأول من علاجك. إذاً لا بد من استكمال النّصف الآخر من العلاج، وهو دواءٌ لعدد كبير من الأدواء، وهو مستخرج من رحيق نبتة الخلود، أقصد الدواء الذي نطلق عليه، عادةً، اسم «الحكي».

هز بطلُنا رأسه تارة ثانية، ولكن هزّه مرات عديدة، وبالإضافة إلى ذلك كله، فقد افترّ ثغره عن ابتسامة عريضة، وأخرج منديلاً من جيبه، ومسح دمعات أردفَتِ الابتسامةَ مباشرة. عن نفسي، لم أستطع فهم هذه المشاعر المتناقضة، لكن يبدو أن السارد قد فهم شيئاً، إذ ابتسم هو الآخرُ بطريقة غريبة، كمن لم يبتسم في حياته أبداً.

توجّه بطل السرد نحو الزاوية الأخرى المُظْلِمَةِ من المكان.

انتصـــبَ. وأدارَ وجهه شـــطر الجــدار، وبدأ يتمتم كلمــات لم أفهمها، بقيت لوهلة ليست بالقصيرة، وأنا أرقب تمتماته تلك، مُحاولاً الإمساك بشـــيء ما، لكني لم أســـتطع إلى ذلك ســـبيلاً، فزاد توتّري حتّى كدتُ أســـمعُ دقّاتِ قلبي. قد أتفهم المشـــاعر المتناقضة، غير أن المشـــاعر الغامضة مستعصية عليّ.

وبعدَ حركاته تلك، أخيراً قال بهدوء كبير جدّاً:

ـ لقـــد قرأتُ كلّ ما سُـــردَ فُوَيْقَهُ عن حياتي وســـيرتي، ألقيتما الضوء على شـــخصي في شـــقّه المبطّن. والحديث عن الدّاخل خاطئ ولـــو أصاب. أنتما، أو بالأحرى أنت، لقد أشفقتَ عليّ لأني عانيتُ الكثير في حياتي، وقمتَ بالدفاع عني حينما قام «الآخرون» باتهامي، تكبّدتَ عناءَ الحكي لتخفّف عنك وعنّي، أرجعتَ أســـباب «اختلاف» سرودي إلى مشاكل في نفسيتي، حكيتَ سروداً ناشزةً للذود عن رؤيتي، ولكن هل استطعت؟

ـ لا.

ولن تستطيع أبداً، ما دُمتَ تُدافع عنـي... أوَيحتاج أدبٌ ما إلى الدفاع عنه؟ لقد حُظرت روايتي الأولى بســـبب «اختلافها»، ولكن أتدري كم بيعَ منها في حياتي، وحتى بعد مماتي؟ لا بد أنك تعلم ذلك.

أنا لا أروم تحريك غرائز القراء، إذ لستُ خسيساً إلى تلك الدرجة الدنيئة...

أنـــا لم أكـــن أريد لحياتي أن تبقى لـــي وحدي، أحببتُ أن أشـــاطرَها الناسَ جميعـــاً، بحلوهـــا ومرّها. وها أنت ذا ترى، أكان «خبزي» يســـتحقّ أن يُحظر؟

وكذلك «زمن أخطائي»، فهي ليست أخطائي أنا وحدي لكي تُحرق في أتون المحظورات، بل إنها أخطاؤنا جميعاً، أخطاؤك، وأخطاؤهم، حتى أولئك الذين عيّروني بالفاسد المفسد.

لا أفهم الناسَ كيف يتعاملون مع أشياء شفافة أمام أعينهم. إن كانوا عمياناً، فإن بصر الحقيقة حديد...

أنا الآن لا أذود عن نفسي، أنا متّ. انقضى أجلي، ورُحتُ إلى حيثُ يروحُ الجميع... أنا أذود عن الأدب الإنساني، عن الأملاك المشاعة بين الناس قاطبة، ويا ليت أن الأمر وقفَ عند سرودي، واستثنى كلّ الآداب... آنئذ لم أكن لأتجرّأ على التفوّه بكلمة واحدة، ولكن الأمرَ غير ذلك...

ويبقى الأدبُ أدباً، وحياتي، وإن انقضت، فقد فديتها لكل النّاس...

أودّ أن أستلقي قليلاً، بعد إذنك...

* * *

بعد استئذانه، أخذ بطل الحكي لنفسه مكاناً في ركن الغرفة، واستلقى على جانبه الأيمن. ولأني لا أملك مهارات السارد العليم، ارتأيتُ أن يقوم «السارد» بعملية سرد الحلم الذي رآهُ «بطل السرد» في منامه.

وليس الحلم

شيئاً آخر غير

هذا الذي تبحثُ عنه في قواميس

اللغة،

فتقرأ شرحاً للحقيقة!

(3)

– لماذا أراك اليوم حزيناً يا جوبا؟

قـال محمّدٌ مخاطباً كلبه الأثير. غير أن الكلب يسـبل عينيه باتجاه سـيده المقرفـص أمامه. يحـرّك ذيله ببطء شـديد، كأنه مشـدود إلى صخـرة ثقيلة جداً. مسّـدَ محمد فرو كلبه، لكن الأخيـر عضّـهُ عضّة خفيفة، وهرب نحو ركن المنزل راكعاً، خائفاً، مرتعداً.

– جوبا! تعال إلى هنا أقول لك!.. صارخاً نادى كلبه.

وفي سـرّه قـال: أأنتَ أيضاً يا جوبا تهرب منـي؟ هل أنا إلى هذه الدرجة سيئٌ؟

ولمّا أدرك أن الكلب لا يريد أن يراه، انكفأ وحده في ظلام غرفته، متمتماً:

أعلـمُ جيداً أن ما سـطّرته في كتبي محظور فـي المجتمع، وأعلم أيضـاً أنني لو كتبتُ ذلك بشـيء من التوريـة والتجميل، لما نفر مني الناس، ومما أكتب.

لكن، ما الذي يمكن لشـخص رأى الجحيم تسعر على الأرض أن يفعله؟

ما الذي يمكن أن يقوم به شـخص لم تُحصّن جوارحه من ملامسة القرف؟

لقـد أدركتُ منذ صغري أن الأرض تُنبتُ ثمـاراً من البذور التي زُرعـتْ فيهـا؛ إذ لا يمكـن لأي كان أن يزرع تيناً ثم ينبـتُ زيتوناً! لقـد اقتتّ علـى القرف، تناولت كل أصنـاف القمامات، رأيتُ الخبث ينتصـب على قوائمـه، حتى صارت أولـى صباحاتي قرفـاً، وآخر مسـاءاتي قرفاً، وما بين الصباحات والمسـاءات... ويا لأسفي، قرفٌ أيضاً...

لقد فكّرتُ دائماً، أنني لو لم أكتب ما كتبتُه، لكنتُ أكبر منافق على وجـه الأرض، لكنت أدنى من آلة التصوير التـي تحضن الواقع كما هو، لكنتُ أذلّ من آلة...

أظن أنه لو قيّض لي أن أختار كيف أعيش هذه الحياة، لما اخترتُ ما عشتُه. لاخترتُ سيناريو آخر...

حينما أحاجج شخصاً ما في كوني صوّرتُ المجتمعَ كما هو، شفّافاً بغير ماكياج، يردّ عليّ قائلاً:

– ما رأيُك في القرآن؟

أردّ:

- **إنه معجزة.**

فيضيف:

- إنك لا تشكّ في إعجاز القرآن، وفي الوقت نفسه، لا ترى الطريقة التي بها سرد الله أخبار قوم لوط المفسدين؟

وهروباً من المجادلة أردّ أيضاً:

- أَوَتُقارِنُ إنساناً بإله؟

فأسمعه خلفي يردّد: لا حول ولا قوة إلا بالله!

يقابلني أناسٌ فيسألونني:

- ألم تندم على كتابة نص الخبز الحافي؟

فأجيبهم بمراوغة:

- أجل، ندمتُ جدّاً على كتابته، لقد أخذ شهرتي كلّها، حتى أصبح أشهر مني، تمنيتُ لو كتبتُه بطريقة هادئة...

وفي داخلي تمور التحسرات: لقد جرّ عليّ متاعب كثيرة... حتى صرتُ أتناساه.

أعود إلى جوبا، فأجده لا يزالُ غاضباً مني... أتركه جانباً وأخرج، دونه، لأخيط شوارع طنجة، الشوارع التي لم أزرها منذ أمد بعيد. فيها أطلب النسيان، هذا المأمولُ صعب التحقق حين نحتاجه

جداً. النسيان يجتاحنا، فقط، حينما ننسى أننا نودّ أن ننسى. ولذلك لا أستطيع نسيان «خبزي الحافي»، لا أستطيع ذلك. وحتى إن استطعتُ ذلك، فلا أتوقّع أني سأرغبُ في أن أستطيع!

أمجنونٌ أنا؟ ربما...

إن الناس يتهمونني بأشياء كثيرة، منها المثلية... ولعمري لافتراء ما بعده افتراء هذه التهمة. لقد عرفتُ في حياتي أناساً كثيرين يتعاطون ذلك، أما أنا فلا، أنا لا أستطيع أن أمشي في درب مختلف عما هو أنا.

لقد قمت في صغري بمراودة طفل صغير عن نفسه، أنا لم أكن أعي حينذاك شيئاً، لأنني كنتُ لا أميز، (بين الليل والنهار).

وذات مرة، هربتُ من فندق – وأنا متعب جداً – بسبب من أن متعاطين لهذه الحرف المخزية موجودون فيه. أنا لا أطيق رؤية ذلك، وإذا كنتُ قد كتبتُ عنه؛ فلأن اللغة فن، أوليست مهمة الفن: أن نجمّل الحياةَ حتى في أقبح صورها؟

أنا لستُ دنِساً، وما كتبتُهُ ليس دنَساً. الكتابة تنظّف الحياة القذرة. ثم إننا يجب أن نتحدّث عن القذارة بأسلوب جميل. وأسلوبي لم يكن قرآنياً، لأني لا أستطيعه، أسلوبي كان شُكرياً صرفاً...

كل ما في الأمر أن ردّ فعلي تجاه صفعات الحياة كان مختلفاً... كان مختلفاً درجةً أني أصبحتُ مغترباً... مغترباً جدّاً.

وغربة.

لي غربتان:

واحدة هنا وواحدة

هناك.

أيهما الأغرب؟

لا خيار بينهما،

في زمن المحن،

رغم الوطن.

الضفادع هي التي

لا ترحل من مرجها.

ما كان لي أن أقول:

سأرحل غداً،

لكن انقيادي

كان قهراً،

وبقائي صموداً

كان هشّاً.

يااااه! كم أحســني وارثاً من شقاء الحياة الفانية أكثر مما أنا وارث من نعيم الموت الخالد.. وما أبعدني عن {ونعمة كانوا فيها فاكهين}!

أيكون شـقائي محصوراً في الدنيا فقط؟ كم عنيدةٌ هي الـ«نَعم» هذه ! أأقامر في احتمالاتي؟...

أنا أقامر،

لكي أربح ولو قليلاً،

هذه فضيلتي.

البحر! آه من البحر!

أليس أننا منه وُلدنا وإليه راجعون!

إنه أمنا وليس أبانا.

وهل للشـعر شـعرٌ يكفكف آهاتي ودموعي؟ آه من جروح الشعر وغزوات الدموع، سطّرتُ صراطي ولم أجتزه؛ إذ كلّما حاولتُ

تغزوني دموعي.

من خلال أفكاري.

ربما ضعفاً فكرتُ في نفسي،

أو في أحد.

ليس البكاء هو البكاء.

قد يخجلُ الحزن

من نفسه أحياناً

عندما يغزو المقهورين.

لا مصالحة مع السفّاحين.

لي لحظات أسرقها

من الفرح الشارد.

ولقد حلمتُ دوماً أن أكتُب سـيرتي، لكنني لم أكتُبها. سيرةُ الحزن العميق لا تُكتبُ، بل تنساب أمواجاً من الدموع من قلبي الذي عصرَهُ الزمنُ بين كفّيه.

مساء الخير أيها الليليون،

مساء الخير أيها النّهاريون،

مساء الخير يا طنجة المنغرسة في زمن زئبقي.

يؤسفني، أيها الثلاثة، أن أعترف لكم بأني لا زلتُ لم أكتُب سيرتي، ولن أستطيع ذلك..

أنا لن أفيق من هذا الحلم. الحلم ضالتي ومسـكني وسـاكني، الحلم حلمي الوحيد. وأنا ابن الحُلم الذي لا تعبير له...

أنا لن أعود..

أنا لن أعود..

أنا لن أعود..

(4)

أفـاق بطل الحكـي، هَلِعاً، من نومه، فاتّجـه، دون أن يُدير وجهه ناحيتنا، صوب الباب، خارجاً منه بسلاسـة وانسـياب كمن تبخّر في الهواء!

سـارَعْتُ إلـى التحدُّث إليه قبل أن ينصرف، فمنعني السـاردُ من ذلك؛ أمسك بيدي فقال:

– دعك منه، أتمنى أن تكون استوعبْتَ ما جئتَ من أجله...

بقيتُ فاغراً فاهي أمام عبارته، فأجبتُ والفوه لا يزال فاغراً:

– كيف ذلك؟.. تلعثمتُ؛ لأني كنتُ أودّ أن أستفسرَهُ عما كانَهُ حكي بطل الحكي، وما إن اندفعتُ كي أضيفَ إلى ما قلتُ سؤالاً آخرَ، حتّى قاطعني قائلاً:

– فـي لسـان العرب، ابحث عن شـرح حَـلَـمَ. إلـى اللقاء. قالَ جملتهُ، وتبخّرَ هو الآخر...

ماذا يعني هذا كلّهُ؟ لم أفهم شـيئاً! الحياةُ كلّها غامضة، من رأسها إلى أخمص قدميها...

لقدْ أتيتُ إلى هنا، كي أتعلّم طرائق الحكي وفنونه، فما الذي جرى حتى الآن؟

أهو الكونُ معقّدٌ وغامضٌ إلى هذا الحد؟

ماذا يجبُ عليّ أن أفعل؟

أرهقتُ هذه الصفحات بالأسـئلة التي لا جواب لها. يا لشقوتي! ها هم رحلوا جميعاً، وتركوني وحيداً أعاني ويلات الحكي...

فماذا أفعل هنا زيادة على ذلك؟!

* * *

(هنا وحدي، هنا اللامـكان أقصد، تنتقلُ بي الأفكارُ، وتتجولُ في غابـات الحكي المتاهيـة، تحملني على الانطلاق إلـى الأفق الذي لا أفق له. إلى الخيولِ الشـقرِ المُفزعة ليلاً. إلى صهيلها الذي لا ينتهي. تتشبثُ الأشباحُ بالأشباح، وتجري نحو الأشباح. الحكي روحٌ لا تسكنُ روحاً أخرى... مكانها شبحٌ خالٍ من دنس الاحتمالات. كيف لي رتقُ ما فُتق على هواهُ وانتصر على الأمواج الهائجة، وعلى نسمات البحر الفجريـة؟ كيف لي أن آخُذني بيدي إلى منزل سـعيد لا يُحْتمَل؟ كيف لي...؟ كيف لي...؟ كيف لي...؟ أنا السارِدُ ابنُ السردِ، وُلدتُ عند حافة النهر، الذي ليس هو النهر، ولدتُ على بساط يمتشقُ زهوراً شريرة،

ويتّشـح بالإزار الذي لا يُزار. استقيتُ من الحُبّ شقائي، ومن الشقاء شـقاء يفضـي إلى المسافات التـي انتهت إلى اللانـهاية. ليس وحدي من يكتُب. ليس وحدي من يموت. ليس وحدي من يعبُر بحراً، راهنَ حنّا مينـــه على خطره وبهائـــه. ركبتُه، فركبني، دون أن يحـــرثَ أفكاراً، اهتزّت، وارتجّتْ، نشوةً لمّا اختلط الحابل بالنابل...).

(5)

فتحـتُ عينيّ، وأنا مـا زلتُ أمام لوحـة المفاتيـح. أرمُقُها بعينيّ الناعستين. ما أزال أفكر في قصة ما أرويها لكم. قصة ما، وقدْ نسجتُ خيوطها في حلمي.

كم لبثنا؟

يوماً أو بعض يوم؟

أسمعُ، من بعيد، صوتاً لم أتبيّنه يقول:

– الحُلم وحده ينفلتُ من قيود الزمن.

لقد أصاب، وأمسك بفراشة الصواب!

أيمكن لهـذه الهواجس اللاشـعورية التي انتابتني طيلـة الحُلم أن تصبـح رواية؟ وقبل ذلك، هل هـو حلم حقاً ما انتابني؟ لا أعتقدُ ذلك. سـيقول معظم القراء: «عِشْنا وشِفْنا تفاهات!» وأنا لا أتحمّل أن أُهانَ من أحد. حتى ولو كانَ السارِدَ الذي يسكُنني نفسه.

أعادنـي إصراري إلى نقطـة البداية الأولى، (الأولى؟ وهل هناك

بدايات أخرى!) التي وشمتْ ذهني بعمق. إلى لحظة الحب القصوى. سرجت خيل الخيال، فاندلقت ركضاته، بانسياب، في فضاء الحكي...

أحياناً، لا شـــيء يدعو إلى التفكير، لكننا نفكّر. ما الذي يدفعنا إلى ذلك؟

«الحبّ»، قالت بنات أفكاري.

قاموس الحب لا يُقرأ، قاموسه يُحَبّ فقط.

أرمق شاشـــة الحاســـوب، وأقرأ، بســـرعة، منشـــورات أصدقائي على الفايســـبوك. أضع علامة إعجـــاب على بعضها، وبعضها الآخر أتجاهلـــه، كي لا يعلم صاحب المنشـــور أني «نشـــط الآن» ثم يصدّع لي رأسي على الماسنجر برســـائله المُسهبة. وفي إحدى المجموعات الفايســـبوكية الخاصة بالكتب والقراءة، أقف عند منشور متميز، وهو عبـــارة عن صورة لغلاف رواية الياباني هاروكي موراكامي، أقصد رواية «كافكا على الشـــاطئ». يأتيني شعور عارم بقراءتها؛ لكني لا أملكها في مكتبتي الخاصة، فما العمل إذاً؟

أتصل فوراً بصديق لي:

– ألو! سلاماً، كيف الحال؟

– بخير، وأنت؟

– أنـــا بخيـــر. لقد اتصلتُ بك مـــن أجل أن توفّر لـــي «كافكا على

الشاطئ» هذا اليوم، لو سمحت. لأني لا أتوفّر عليها في مكتبتي.

– لا عليك، ستكون عندك بعد ساعة على الأكثر.

وبالفعل، بعد ساعة يحضر لي صديقي الروايةَ الضخمة، (عكس روايتي تماماً)، تفوق صفحاتها الستمائة، لكن لا يشكل ذلك عائقاً بالنسبة إلى الحب.

فبدأتُ أقرأ:

«الفتى المدعو كرو»

ثم ماذا؟ يأذن الياباني لجواده بالانطلاق في رحلة اللابحث عن النهاية. أتسمّر في مكاني من شدة إعجابي بالرواية التي أقرأ، أحسّني أكتبها، ثم تكتبني بعد ذلك على شكل كائن يقرأ. حينما تستوقفني أحداث مائزة، أُغرق وجهي بين صفحات الكتاب، لأشمّ «عبق رائحة الورق»، لا أشم شيئاً. أنسى ما ظننتُ أنكم تعلمونه.

بعد ساعات، لم أشعر بطولها، أدخل، ودون أن أشعر أيضاً، إلى عالم القطط. كيف يتحدّثُ ناتاكا مع القطط؟ أمعقول ذلك؟ أما «أشياء» في نفسي فتجيب: «كأن الأفعى لمْ تُحادِثْكَ في الصحراء؟!»، عن أي أفعى تتحدثين بحق السماء؟ أغلق أبواب الموضوع (ونوافذه أيضاً)، كي لا ينتشر في فضاء «الحلم»، مرة أخرى. كي لا أقع، بعد ذلك، في فخّ الحكي.

بعد أن أُنهي قراءة «كافكا على الشاطئ»، يغلبني إحساسٌ بالرغبة

فـي الكتابة، كجلّ القراء حين ينتهون من القـراءة فيصيحون «يااه! أنا أيضاً أسـتطيع أن أكتُـبَ مثل هذا!» فلا يكتبونـه طبعاً، ويرمون بأقلامهـم وأوراقهـم من النافـذة، قبل إتمـام الصفحة الواحـدة. إنني أتحدّثُ، هنا، عن نفسـي طبعاً... كم من مرة يشتكي البقال الذي أسفلَ شـقتي مني؛ إذ إنني لا أدري كم من مرة أرشـقه بقلم، أو بدفتر، دون أن أعلـم بذلك، بعد أن أقذفها غضباً، وبالتأكيد بعد كل محاولة فاشـلة للكتابة، من النافذة.

لكني هذه المرة أحاول فلا أفشل؛ لأني أكتُبُ أكثرَ من صفحة!

فبعد أن جهزتُ حاسوبي، وبرمجتُه على «الوورد»، عدّلتُ الخط الذي أحبّ، وكذلك معدّل سـمكه على الورقـة الإلكترونية. وقبل هذا وذاك، حضرتُ قهوة سادة لي «من أجل التركيز»، وشغلتُ الموسيقى على مسـتوى صوت منخفض نسـبياً. أطفأتُ كلّ الأنوار، لكي ألغي وجودي، وأسمح لوجود وجودي بالحضور.

أأسـتطيع أن ابـدأ الآن؟ لا، يجب أن أفتح النافـذة من أجل تهوية أفضـل، لا يضـر ذلك بوجود الوجـود طبعاً... ثم أخيراً، أسـتحضر كل حكـي أحببته من كل بقاع العالم، لكي أقوى على مخاطبة إنسـان إنساني، لا إنسان لغتي.

فلكي تكون «عالمياً»، عليك أن تكون إنساناً قبلَ كل شيء.

روايتي على مشارف بداية النهايات، لكن أأكتُبها؟ ألن أندم؟

سـقراط: هذا الذي لا يكتب، يقول نيتشـه. من هو المحقّ؟ سقراط أم نيتشه؟ أم كليهما؟

دعونا، فالكتابة سمّ لذيذ، لذيذ جدّاً!

الآن الآن، تبدأُ حروفي، ربما، بالاجتماع:

(6)

(لعل في ساحل الرواية ما يغري بالمتابعة، وبالكتابة المرصّعة بالحب).

لقد انبثقتُ من الرواية، وإليها أعود... أعود الآن مُحمّلاً بعبء القضية: بطل الحكي، بل الأحرى، بطل الحلم. صاحب السِّيَرِ، عاشق الكلمة الشفافة. منذ زمن، أو الأجدر، منذ زمان سردي بعيد، يراودني هاجس الكتابة عن طائر ما... وبعد رحلة صيد شاقة وممتعة في الآن نفسه، انتهيتُ إلى قناعة الكتابة عن الشحرور الأبيض، فهل كتبتُ عنه؟

في الحقيقة (أي حقيقة؟)، فما تعاقَبْنا على سرده أنا والسارد، ليس شيئاً ذا بالٍ في رقعة حياة الشحرور الأبيض، فنحن الاثنان لم نستطع الإمساك بـ«الحقيقة»؛ لأن الإمساك بهذا الكيان المائي المنفلت، عصي دائماً.

لقد كان مَطْمعنا، أو لأكن صادقاً، لقد كان مطمعي من الوقوف أمام لوحة المفاتيح خاصتي طول هذا الوقت، هو الحصول على هذه «الحقيقة»؛ لكنني، والحق يُقال، بعد أن أفقتُ من غفوتي القصيرة

هاته، اكتشفتُ أني كنتُ أجري وراء السراب، وراء أشياء لم تكن، يوماً ما، موجودةً.

لكني اكتشفتُ أشياء أخرى أيضاً... اكتشفتُ أن السرد غاوٍ، وأنه يصيبُ الأناملَ التي تكتُبُ الحزنَ سعادةً، لا تضاهيها سعادة. اكتشفتُ أن السّرد حياة، أنه حبّ، أنه... أنه تضحية أيضاً. وبعد كل ذلك، اكتشفْتُ أن أكتشِف...

...

(اتركني أيها الطيرانُ أخبرك أن في قاع البحار وأعماقها ما يغري بالكتابة أيضاً، دعني أمهلك ثوانيَ أخرى لتكتب عن حياة العصافير والطيور العائمة، دعني أريك أبجدية السباحة التي تعلمتُها خفية من أغصان شجرة الصنوبر المحاذية لشمسك التي غرست خيوطها في قلبي. دعني أستبيح شرفك فأعطيك شرفاً أشرف... الحبُّ. الحبُّ سمتك الوحيد لتجتاز أرض اليمبوس، نحو جوهرك الأبدي، جوهرك الذي أسمعني بنايه أنغاماً خارقة، جوهرك الحر دائماً في شساعة كل السماواتِ الزرقِ منها... والبيضِ أيضاً... وأخيراً، لأحصُلَ على فرصة ثانية من أجل تأشيرة للصدق...)

* * *

قبل النوم، أقرأ «تأملات قبل النوم»، للهندي الفيلسوف أوشو، وبضمير المخاطب يأمرني بالحب والمحبّة، ويحفزني على الوصول إلى النعمة التي لا مكان لها سوى في داخلي حسب زعمه، لكنّ حنا

مينـــه لا يرضى بالحال فيردّ من جانب آخـــر: الكره هو الوجه الآخر للحب. فأجدني معلّقاً بين ســـورين ضخمين، لكنّ النوم ينقذني أخيراً، فينتشلني، ويرفرف بي إلى فضاءاتِ الحكي مرّةً أخرى:

حينما لمحَ عبارة «صُغ حياتَك كما تُريد» أعلى فوّهـــة المغارة، كان يحلـــم هو أيضاً، فما كان له إلا أن يدخُـــل إلى المغارة متمنياً حظاً ســـعيداً لنفســـه. ليلتقمَهُ، بعد ذلك، السوادُ الحالك.

قرّر الحالم أن يغمّض عينيه، (ما دامت العينان لا تفيدانـــه فـــي شـــيء، في هـــذه الحالـــة)، ومضى بتـــؤدة، وبهدوء كبير، كمن يمشـــي فوق السُّـــحُب. فكر للحظة: كيف يمكن أن أعيد صياغة حياتي في الظلام؟ أتكون خدعة؟

لكنه حالما ألقى ســـؤاله على نفســـه، اكتشف أنه لم يكن مخدوعاً، فقد أمسك بيده «شيءٌ» لم يتعرف إلى هويته. أمســـك «الشيءُ» باليد في صمت، وفي هدوء أهدأ من الظلام الســـاكن نفسه. قاده إلى مكان مظلـــم هو الآخـــر، أجلســـه على كرســـي مغاري، أقصد: على صخرة صغيرة.

وبعد هنيهة قصيرة، سمحَ «الشيءُ» فيها للحالـــم بالتنهّد، قال:

– أنت الآنَ بين يديّ، وبما أنك تجرأت على دخول المغارة، فإنني أجزم عزمك على التغيير.

صامتاً لبث الحالمُ؛ لأنه لم يفهم كثيراً مما تُحُدِّث به، وقبل أن يواصل التفكير، أضاف «الشيء»:

– كان عليّ أن أضعك، قبل أن تدخل إلى المغارة، أمام خيارين. لكنك وافقت على الخيار الثاني: خيار المغامرة، هذا لكونك دلفتَ إلى هنا بـ«إرادتك».

لكن الحالم لم يصمت هذه المرّة، فقد قال على نحو غير مرتقب:

– أنا مستعدّ لاجتياز هذه المغامرة.

(فانبثق نور في المغارة. نورٌ، لحدّته، يُدمِعُ العيون. نور منبثق من عيني الحالم. من قلبه. من كيانه ووجوده. فوجد الحالم نفسه كمن يقف في قمة جبل يراقب، بواسطة تلسكوب، بلدة خفيضة).

– لقد وضعتُك الآن أمام حياتك، فصُغها كيف تشاء. هكذا قال الشيء قبل أن يختفي بالمرة.

مكثَ الحالمُ، في حيرة، يشاهد شريط حياته، القابل للتعديل الآن، وهو جالس على كرسيه

المغاري، فتأمل، لبرهة، حياته المعروضة أمام عينيه، في تعب، قبل أن يقول: لقد قيّض لي أن أعيشَ مقهوراً في داخلي، ومنبوذاً من كثيرٍ من بني جلدتي، فهل سأتمكن الآن، وجهاز التحكّم عن بعد بين يدي، أن أعيد كتابة سيناريو حياتي؟

وقبل أن يضغط على الزر (annuler) لأجل إلغاء سيناريو حياته السابقة وإبداع آخر، فكر جيداً في عاقبة عدم الرضى بالواقع، وبمسلمات لا يمكن الفكاك منها بأي طريقة؛ لكنه أخيراً، ضغط على الزر، فتبدّت على الشاشة مجموعة شروط، لأجل تفعيل الاختيار، وهي:

- اللاقابلية للقراءة.

- عطل في تفعيل بيانات القدرة على الكتابة.

- انعدام إلكترونات التميز بالمجتمع.

- العمى الكامل الذي يقف عائقاً أمام شحن بطاريات التعرف إلى أسرار الناس والمجتمع.

- لا قابلية الحقيقة والشفافية للاشتغال.

عندما قرأ الحالم هذه الشروط، أحسّ بصداع نصفي في رأسه. تيقّن من أن قبول هذه الشروط

يعني الموت المحتم، ليس «الموت» بمعناه العادي، بل الموت بمعناه الحُلمي، و«الحقيقي».

وبعد هذا كلّه، أدرك الحالمُ ما أدركَ، قبل أن تُدركه الشمسُ في صباح اليوم التالي، ليفيق على قلب مقهور، وروح تنشد الحبّ، تنشد القراءة والكتابة.

وسؤال لا ينفك يراودُهُ: لِمَ لا أستطيعُ تغيير حياتي؟

(7)

كما تعلمون...

كمـا تعلمون قرائـي الرائعين، فإن الرقـم (7) دائماً ما يوحي لكم بنهاية ما، نهايات قد تعرفتم إليها بتجربة القراءة. لكن المشـكلة ليست فـي هذه الـ(7)، المشـكلة هي كيف يمكننـي أن أنهي آخر (7)، دون أن تشـعروا بأنني قد ضيّعتُ أوقاتكم الثمينة، التي كان من الممكن أن تُبـذل في قراءة ما هو أهم كـ«بنية الانقلابات العلمية» لتوماس كون، أو «فلسـفة اللا» لباشـلار، أو غيرها من الكتب التي تسـتحق وقتكم الثمين...

يبـدو لقـارئٍ ما، قارئي الضمني مثلاً، أن السـرود التي سـوّدت بيـاض هـذه الرواية ناشـزة جداً، فهـي قد تصل بعـض الأحيان حدّ التناقض، نعم أوافق جداً على هذا الأمر: حدّ التناقض المنسجم!!

لا يبـدو هـذا مهمّاً، لكـن ما يجـب أن أخبركم بـه الآن، في هذه اللحظات التي ينتظرها كل من واكب هذا المسرح البريختي، هو أني رأيـتُ، «فيمـا يرى النائم» طبعاً (ولا أظن أنـي أحتاج إلى الإردافِ

الدائـم لتلك العبارة الرنانـة؛ لأن الحياة، أصلاً، حلمٌ لـو تمعنّا!)، أن بطل الحكي يضع مظروفاً أبيضَ في صندوقي البريدي الخاصّ، ولمّا أسـرعتُ إليه، لأجل أن أسـمع منه كُلَيماتٍ تكفي لإنهاء هذه الضجّة، وجدتُه قد اختفى، كالسـراب تماماً. انقضضتُ على المظروف. فتحتُه بحذرٍ قد لا أتعاملُ به مع شيكات ذات أصفار مغرية، أخرجتُ الرسالة الأنصع بياضاً لأقرأ:

إلى رواني ناشئ

يسعدني، ويؤسفني، في الآن ذاتـه، أن أكتب إليك هذه الرسالة. وكما تجري العادة عند كل إنسان؛ إذ يحب دائماً سماع الخبر السعيد، قبل المؤسف، سأخبرك بما يلي:

يسـعدني أنك تعلّمت من نفسك، ومن السارد الذي يسكنك، الدروس الثلاثة التـي راهنتَ على تعلمها منذ البدء. أي: الحماس، والإنصات، واعرف نفسـك بنفسـك. هي دروس تعلّمتها، في غفوة قصيرة، لوحدك. لم يكن لأي كان يد في ذلك. أمسكتَ بالفراشة لوحدك.

تحمّستَ للحكي، وانطلقتَ، بكل حبّ، كي تنالـه...

أنصتَّ لساكِنِكَ، أنصتَّ للحلم الحقيقي الذي يناديك من الدّاخل...

عرفتَ نفسـكَ بنفسـك، بعد أن تركت طُرُقَ أبـواب الآخرين، وطرقتَ باب نفسك...

أسعدني هذا... أسعدني جدّاً...

لكن ما يؤســـفني، وربما يؤســـفك أيضاً، أنك اخترقتَ الاحتمالات، ووضعتَ الكائن في مكان الممكن، واندفعتَ تهاجم، بحكيك، أسراباً وأوهاماً...

هذا كل ما كنتُ أودّ من السارد، الذي يكبر وينمو فيك، أن يعيه...

وأخيراً...

واجه الحقيقة بالخيال... واجهها بالحلم...

واجهها بالسؤال الذي لا جواب له...

بطل الحكي (محمد شكري)

(تمت)

بعد السرد

بعد الرحلة في القراءة، ماذا عســاهُ أن يفعل قارئ غير أن يجلس إلى نفسه، ويبدأ في إثارة الأسئلة؟ ذاك هو المبتغى!

لقد اعتمدتُ وقائع كائنة وأخرى، وإن لم تكن، فهي دائماً ممكنة.

العبارات المسطرة بالخط المضغوط، في سياقات بعينها، تعود إلى أصحابهــا، وللقارئ الباحث، دائمــاً، الحرية في العودة إليها. ولرغبة خاصة، فضّلتُ تأجيل الإشارة إلى هذه الأشياء إلى ما بعد السرد.

وأخيراً، أتمنى أن أكون قد كتبتُ شيئاً ذا بالٍ، شيئاً مختلفاً...

جائزة الشارقة للإبداع العربي

الإصدار الأول | الدورة 22 | 2018

الفائز الثاني في مجال الرواية

محمد مختاري

المملكة المغربية

- دبلوم في اللغة العربية وآدابها.
- دبلوم في النقد و الأدب.
- يعمل في مجال التدريس.
- عضو عدة جمعيات أدبية.
- شارك في مؤتمرات أدبية.

9 789948 387206

دائرة الثقافة الشارقة